هي...

في قبضة الريح

ضحى عبد الرؤوف المُلّ

هي...
في قبضة الريح

مجموعة قصصية

دار الفارابي

الكتاب: هي... في قبضة الريح
المؤلف: ضحى عبد الرؤوف المل
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/ ٣١٨١ – الرمز البريدي: ١١٠٧ ٢١٣٠
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: كانون الثاني ٢٠١٦
ISBN: 978-614-432-421-9

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

إن تجريد الفن القصصي من ألـوان الحياة الحقيقية هو موت للحروف على أوراقنا البيضاء التي تحمل السلام الفكري المتوازن للعالم.....

بوح قصصي تحمله رياح الحياة العائمة في صدري.

ربما يحمل العنوان أسلوب كلمة اعتمدت على أشياء بسيطة تحمل من أرواحنا ما يجعلها ذات عطر خاص أو بصمة روحية هي جزء منا....

ضحى عبد الرؤوف الملل

إهداء.....

أمسح بيدي جزءًا من ذكرياتي معكِ، لكنني لا أستطيع النسيان جدتي، فنجان القهوة ورائحة بيتك العتيق، والعصا التي كنتِ تتكئين عليها، والقلب العامر بالحب لجدي محي الدين... هو ذاك الحب الذي نثرته رياح القرية التي لم تغادريها حباً به، لم يعلم سواي أيتها الحبيبة كم أنت أنثى وكم ولدت منك إناث يمسكن عصا السنديان ليمسح جدي شاربيه مفتخراً.. إن له زوجة لم تنجب ذكوراً لكنها أنجبت كل امرأة أنثى وكل غصن زيتون أثمر رجالاً....

إليك جدتي أهدي

مجموعتي القصصية

هي في قبضة الريح.....

تقديم: الأستاذة حياة حدارة

تقنية وتأثيرات السرد القصصي وجماليته..

التقيتها ذات مرة في إحدى المناسبات الأدبية، اقتربت مني، هنأتني على كلمتي المتواضعة، وذكرتني أنها كانت إحدى تلميذاتي في المدرسة الثانوية منذ سنوات. لم أكن أعرفها ولم أتذكر عنها شيئاً في غمرة الأحداث والسنين وهموم التربية والتعليم والمشاكل الأسرية المتلاحقة.

لم أكن أدري أن وراء هذا الوجه الصبوح وهذه البراءة المرتدية ثوب العفة وجهاً آخر أشدَّ تأثيراً في النفوس والأذهان، وجه أديبة بكل ما في الكلمة من معنى، لها موقعها في اتحاد الكتّاب اللبنانيين.. ولم أكن أتخيل أن أقف اليوم لأتحدَّث بكل فخر واعتزاز عن تلك السيدة التي لم أعرها اهتماماً كبيراً عندما كانت إحدى طالباتي...

قرأت نثرها الشعريَّ ثم قصصها القصيرةَ التي أهدتني إياها موقعة باسم ضحى عبد الرؤوف المل: «شقائق النعمان يا أبي»، «زهر اللوز وموت رغم الربيع»، «عجوز في ريعان الشباب»، «وتسألين عن يوم مولدي»، «غاوية»، «شقية أنت»، «هي في قبضة الريح»، «أحجية الوداع»، «والماء حين يغضب»، «بربري في لبنان»، «الخاتم المسحور»، والبقية تأتي....

هي تسميها أقاصيص، وأنا قرأت فيها ذكريات ويوميات وخواطر محفورة في ذهن الكاتبة كالنقش على الحجر، تغطيها الريح تارة وتعود لتكشف عنها رياحٌ أخر تهب من الجهة المقابلة.

هي صورٌ ملونةٌ مُثبتة على جدران ذاكرتها منذ الطفولة مروراً بالمراهقة والشباب. لا تريد أن يمحوها الزمن، ولهذا طبعتها على الورق بأحرف من نور.. بعضُها صورٌ جميلة تبعثُ الفرح أحياناً، وأخرى تعسة تبعث الحزن والأسى أحياناً كثيرة، ولكنها في الحالتين حياة عاشتها الكاتبةُ بحلوها ومرها، تفننت وأبدعت في طبعها واستطاعت أن تعبر عما في داخلها وعن معاناتها من خلال أشياء قد لا يعيرُها الإنسان العادي اهتماماً كبيراً: السيكارة، ربطة العنق، الساعة، زهرة شقائق النعمان، زهر اللوز، الخاتم...

فالأدب تعبير عن الحياة بكل ما فيها من دفقٍ شعور وانتفاضة إحساس، هو فن ملامسة الآخرين، ومادة حساسة جداً كأفلام

التصور تنطبع عليها تفاصيلُ حياتنا الأسرية والاجتماعية والنفسية والسياسية والقومية.

حينما قرأت قصصها دُهشت بسعة خيالها ودقة وصفها وجمال تعابيرها حتى لتستحضر المشاهد إلى أذهاننا فنرى ما ترى ونسمع ما تسمع ونشعر بما تشعر. حتى نبتعد بفكرنا ونتساءل ما الموضوع؟.. ما المغزى؟.

ونتابع حتى النهاية. وهنا يكمن السر ونكتشف الحقيقة!. وهذه براعة متناهية...

فهي تشدُّ القارىء وتجعله أسير أسلوبها الفني الراقي.

بارعة في نسج خيوط قصة أحلامها من لوحة «**شقائق النعمان يا أبي**» الربيعية، رومنسيةٌ في اختيار مواضيعها من الطبيعة، حالمة وهي تحوِّل لحظات طفولتها الجميلة إلى إبداع أدبي. تذكرتْ يوم حملت زهرة شقائق النعمان من بستان جدَّتها بلونها الأحمر كأنه حمرة الحياء المغتصب من خدِّ عذراء حالمة، ورافقت أباها إلى الصيد، وكيف أن السماء ابتسمت لها وللزهرة كأنهما طفلتان في حقل فسيح ملأتاه عطراً يضوع بأريج الضحى المشرق في ذاك الصباح وكيف لامست زهرتها بندقية أبيها فوقعت أوراقها على الأرض، فنظرت إليها وبكت، وكيف لملمت أوراقها وكأنها أماني طفلة نثرتها ريحٌ قويةٌ وإذا بها تسمع طلقة

نار قوية فارتعبت ولم تعد قدماها تحملانها. توعدها والدها ألا يصطحبها معه إلى الصيد مرة ثانية وسيأتي بأخيها بدلاً منها، فهو صبيٌ وقوي. وهنا تريد الكاتبة القول كيف كان الأهل يفرقون بين البنت والصبي ويعتبرونها الأضعف ولا يوكلون إليها المهام التي يوكلونها له.

في أدبها مظهر النثر ولكنه يصدر عن روح الشعر، فهو ينطوي على الحنين إلى زمن مضى، زمن الطفولة.

لوحة طبيعية ثانية أوحت لأديبتنا بقصة «**زهر اللوز وموت رغم الربيع**» فيزهر اللوز، يملأ الأرض بياضاً كأن الثلوج غطت الأرض في بستان جدتها. وكثيراً ما تذكر هذا البستان حيث نشأت وترعرعت منذ طفولتها.

هو فصل الربيع ولكنه ربيع عكَّر جماله الموت. استطاعت ضحى ببراعتها المعتادة أن تمزج بين الحياة والموت في لوحة واحدة، وأن تعكس الوجهين المتناقضين لهذا الكون. وتستفيض في وصف مشهد موت جدتها الذي طغى على مشهد الحياة. وهذا يعكس مساحة كبيرة من ذاتها المتألمة التعسة، وتستعيد كل ما جرى في تلك المناسبة الحزينة. وظنت أن الموت دنا منها وهي ممددة على المغسل.

كانت واقعية في نقل ما يُقال: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون»، «لا

إله إلّا الله» منعوها من الدخول، سمعت صوت جدتها تناديها «ضحوتي» كما كانت تناديها حية. امتزج صوتها بصوت الشيخ الذي يرتل آيات من القرآن الكريم: استحضرت مشهد الموت بدقة متناهية: تجمع الناس، منعها من الدخول، فتحها الباب بقوة، رأيتها وعلى رأسها غطاؤها الأبيض الذي طالما أمسكت به وهي تضعُه على رأسها حين كانت تناديها من النافذة: «ضحوتي أنتظرك فالقهوة ساخنة»، وهنا يظهر الفولكلور أو اللون المحلي في بعض الألفاظ والعبارات التي تُقال في مثل تلك المناسبات وتصور واقع البيئة وتقاليدها.

لم تشعر بثقل الثواني إلّا حين رُفعت جدتها على الأكتاف وقد لُفت بشرشف أبيض كزهر اللوز المرمي على الأرض. واستيقظت ضحى من أحلامها لتجد أمامها اللون الأبيض وقد غطى المكان ووجه أنثى تضع سماعاتها في رقبتها وتقول لها: «الحمد لله على السلامة، المهم أنت بخير، أضطررنا لإجراء عملية لإخراج الطفل، فقد مات نتيجة صدمة عصبية». إن تعلق ضحى بجدتها، التي ربتها عشرين عاماً هو الذي أدى إلى فقدان طفلها.

وهذه قصة أخرى عن «عجوز في ريعان الشباب» تعلقت به، رأت فيه والدها الذي أحبته وأعجبت به، رأت فيه النورس المحلق،

طائر الرخ الخرافي الذي يبيضُ بيضة ذهبية، هدهد سيدنا سليمان. رأت فيه غطرسة الظاهر بيبرس، والقائد صلاح الدين وهارون الرشيد، شعرت معه بالأمان، شعور الطفلة في حضن أبيها. شعرت معه بقوة الحب والحنان. جعلت منه شخصاً أسطورياً، استقرت معه استقراراً غريباً، هو رجل عجوز في ريعان الشباب. ذكاءٌ خارق مشعٌ وحلم هادىء، ترتجف جوارحها من رأسها حتى أخمص قدمها حين تراه فيحيي في جسدها الميت برد الشتاء ونسمات الخريف، وحرارة الصيف ودفء الربيع، هو الفصول الأربعة. اشتهت أن تكون حلاله. لقد فقدت الدفء والحنان والحب في منزل الزوجية فوجدت كل هذا في رجل أحلامها، في عجوز خبر الحياة وهي تعي تماماً أن عمر الإنسان لا يُقاس بعدد السنوات بل بشباب الروح والجسد معاً. أعطته بقدر ما أعطاها. وقالت له: «ما كتبت كلمة إلّا كانت لك، وما نطقت بحروف أحبك إلّا لتكون لك. أنت الماضي والحاضر والمستقبل».

شطبت من حياتها كلَّ شيء وألبست هذا العجوز الشاب أحلامها الوردية: محرابها عيناه، وأرضها راحتاه، وسماؤها أهدابُه.

«**وتسألين عن يوم مولدي**» عندما تسألها ابنتها عن يوم مولدها تتهرب من الجواب. لا تريد أن تتذكره وهو الذي كان نعمة على والدها، لطالما قصَّ عليها الوالد معاناته في ذلك اليوم

من فقر وحرمان، وكيف سيتدبر أمر المال الذي يجب أن يدفعه للداية؟.. وإذا به يعثر على محفظة فيها مئة ليرة فضحك وبكى. دائماً تجمع في أقاصيصها المتناقضات. هي تريد أن تنسى ولكنها تكتبُ وتسردُ قصتها في حالة اللاوعي وتتذكر أدق التفاصيل وتعيش يوم مولدها لحظة بلحظة، ويوم مرضت استحال كرهُ والدها إلى حب وحنان بعد أن دعا عليها قائلاً: «يا ليتها ماتت قبل أن تولد. ضمها إلى صدره وكأنها ولدت يومها بين يديه وهو يشعر بحرارة جسدها وكان خائفاً بل مرعوباً من أفعاله السابقة».

«غاوية».. وأنا أقرأ قصة غاوية شعرتُ أنني في حضرة أديبة سكبت كل أحاسيسها على الورق وجنَّدت كل أخيلتها لتسابق الريح وليحط بها الرحال أخيراً عن قدمي حورية من بنات الجن. تتحدث عن الغواية وهي ليست فقط من اختصاص النساء، فمغريات الحياة كثيرة، تصفها بشغف الحبيب العاشق الولهان. تتحدث عن الملامسة وعن هدوء أعصابه حين ينتهي من إغوائها، عن الرغبة الجامحة والاشتهاء، عن غيرة الزوجة منها على زوجها، عن الإثارة: لونها الأرجواني المثير بدأ يشعره بالسعادة وهي تلامس شفاهه بقوة، ينعتها بالملعونة، تتحدث عن عطرها الأخاذ، عن إعجابه بصمتها وطاعتها عن ارتعاشها وتمايلها، عن شعوره بالاشتياق إليها عند الغياب. ترافقه في خلوته. يعرف أنها

ستنتهي وتصبح رماداً. هي حبيبته يدعوها إليه ليضمها بين شفتيه ويقبلها. سيضع بقاياها في منفضة سيارته لتصبح في ذكرياته. يقول لها: «زوجتي تغار منك إن رأتك بين شفاهي، ستقتلك، ستنفيك، سترميك، ولهذا «سيكارتي» حبيبتي سأخفيك بمنفضة سيارتي سامحيني...».

يبدو أن الكاتبة فقدت في بيت الزوجية كل ما ترغب به الأنثى فاستحضرته في قصتها، تخيلته، عاشته وهي تود لو كان حقيقة. من المؤكد أن ضحى كتبت قصتها في زمن لم تكن فيه هذه الحملة الشعواء ضد التدخين قد دخلت حيز التنفيذ بعد. ومع ذلك وصفت السيكارة بالمومس وأن النفس أمارة بالسوء، وبالملعونة، وبأن نهايتها وخيمةٌ وستصبح رماداً. تحدثت عن القتل والنفي والرمي. في هذه الأقصوصة صراع بين الخير والشر بين الجمال والقبح، بين الوجود والعدم بين الحضور والغياب، السيكارة في هذه الأقصوصة تمثل المرأة الأخرى التي يخفيها الرجل عن أعين زوجته. تقول الكاتبة إن حبيبة الرجل حاضرة بغيابها عنه، وزوجته غائبة بحضورها الدائم معه. تبدأ ثورة جنونه التي لا تنتهي إلّا حين ينتهي من إغوائها.

والقاصة تريد أن تظهر طبيعة الرجل ذات الاشتهاء العابر المتنقل. يشده إلى المرأة عطرها الأخاذ، وهو معجب بصمتها،

فالرجل يحب المرأة الصغيرة المطواعة. ويقول لكل امرأة جديدة يقابلها إنها مختلفة عن كل من عرفهن سابقاً. يقارن بينها وبين زوجته التي تملأه حباً والأخرى تملك فن الغواية وترافقه في كل مكان حتى في خلوته...

حين عمدت الكاتبة إلى سرد الحوادث قد أحسنت توقيتها بحيث جاءت في اللحظة المؤاتية التي تدسّ أعمق الأثر في النفس. مصداق ذلك حديثها عن السيكارة أو ربطة العنق كما سنرى فهي لو استهلت بهما أو باشرتهما في مطلع القصة لجاءت باهتة عديمة الدلالة قليلة التأثير.

وهذه أقصوصة أخرى «**شقية أنت**» من هوايتها تشخيص الأشياء. فالسيكارة عندها أنثى غاوية وربطة العنق في هذه الأقصوصة شقية، جذابة، ساحرة، وبالمختصر هي المرأة. جعلت من ربطة العنق موضوعاً لقصة حاكت حولها الأحاديث والأوصـاف وسرجت خيالها لتعبّر عن أحاسيس الرجل بها، وأحاسيس من يراها معلقة على صدره وخصوصاً الحبيبة. ذكرتني هنا بابن الرومي الذي كتب قصائده الرائعة عن اللحية الطويلة والوجه الطويل والأنف الطويل المعكوف تقول بلسان الرجل: «هل سأجدها كما رأيتها أول مرة تتألق بهاءً كأنها تحمل ألوان

الفراشة التي تختصر الفصول؟.. هل سأجدها بين يدي لأجعلها تلامس عنقي فأشعر بها على صدري كأنها تمتص أحزاني؟!..».

أديبتنا تحوِّل الأشياء إلى مجسمات ذات روح ومشاعر تتألق بهاءً وتلامس عنق الرجل، تمتص أحزانه وأثقال صدره، تجذبهُ بسحرها، تتمايل على صدره. هي المرأة التي يتعب الرجل في اختيارها، يفتش عنها وعندما لا يجدها يلتفت إلى غيرها وكلهن واحدة تفي بالغرض.

يتذكر كلمات أبيه عنها: «حين تختارها... عليك اختيار الأفضل منها لأنها لمسة الرجل الأخيرة قبل أن ينهي أناقته، هي عنوان شخصيته، وهي التي تدل على ذوقه وحسن اختياره. حين تضعها على صدرك يجب أن تكون كميدالية تفتخر بها كي تراها العيون، وتشعر أنك رجل مميز بين الحضور». «هكذا يفتخر الرجل بشريكة حياته في المجتمع، وإذا كانت أهلاً لذلك يخاطبها قائلاً: «آه ما أجملك، أخيراً امتلكتك (وهنا تعبير عن حب تملك الرجل للمرأة)، شقيةٌ أنت سأحتفظ بك دائماً مع هذه البذلة، سأكتب تاريخ اليوم على قماشك الناعم لأنني اليوم سألتقي بحبيبتي لأول مرة، فهي جميلة وقوامها رشيق، هي فاتنة». كانت ضحى تبدو في هذه الأقصوصة معجبة بالرجل الأنيق الذي افتقدته في حياتها.

قصة أخرى «هي في قبضة الريح». هي الساعة التي تمثل عند

الكاتبة المرأة التي يراها الرجل في بداية الزواج ملاكاً «صوتها فيه هدوء ونغمة ساحرة كحفيف أوراق الخريف، كصوت ماء يجري، كمطر يعزف نغمات إيقاعية ثم يغيب ويهدأ. هكذا يبدأ معها هادئاً، يتمايل على أكتاف الجبال والشمس يدغدغ بدفئها الأرض فيتراقص العشبُ وتغرِّد الطيور في أحضان الكون...».

يتلاحق عندها التشابه الجميل: تستعمل ألفاظاً كلها سعادة: هدوء، نغمات تتمايل، تدغدغ، تتراقص، تغرد... كل يوم يولد الإنسان من جديد ولا يدري ما تخبئه له الساعات التالية من النهار، ولا كيف ستكون نهايتُه عندما يحل الظلام. ثم تعود وتستعمل ألفاظاً معاكسة تماماً تعبر عن معاناتها خلال النهار بعد هدوء الصباح مثل: «هي أمامه كالريح التي تحرك الأشياء تحريكاً مزعجاً، تشير بأصابعها إلى نهاية حتمية، كلما أغمض عينيه رآها في مخيلته كريح ساكنة، موحشة غامضة تجعله لا يدرك صباحه من مسائه». هذه الساعة رمز الزمن الذي يتسلل من حياتنا، وتمضي السنون ونحن ننطلق إلى أعمالنا غير مهتمين له. نستيقظ بملء الحيوية في الصباح ثم نعود في المساء لننام على صوتها الساحر. وهي في الوقت نفسه تمثل المرأة التي يملها الرجل بعد حين.

بدأ الصوت يزعجه، يريده أن يتوقف لأنه شعر أن العمر

ينقص شيئاً فشيئاً. بدأ يراوده هاجس الشيخوخة المخيفة. عبثاً يحاول الإنسان أن يخمد صوت الساعة الذي يتكتك كأنه منشار خشبي يئن كل لحظة. صار ينظر إلى الساعة نظرة المتألم لأنها بعثت في نفسه شعوراً بالموت المقترب منه، صار وجهها قبيحاً، غمرتها الشيخوخة، أسقط من نفسه عليها، رماها بعيداً، لا يريد أن يسمع صوتها. هكذا يتمسك الإنسان بالحياة رغم الصعوبات، رغم الألم. صار شعاع الشمس خجلاً بعد أن كان يدغدغ بدفئه الأرض، فيتراقص العشب وتغرد الطيور في أحضان الكون. خيم السكون كأنه سكون المقابر، سألته زوجته عنها فضحك ضحكة خجولة وقال: «هي في قبضة الريح».

«**قصة أحجية الوداع**». هي استخارة تروي فيها كل ما رأته في منامها. هي تعبير عن قوة إيمانها ووسع تخيلاتها، فتخرج من عالمها الدنيوي إلى العالم الروحاني، وتشعر كأن الضوء حملها على البراق كما حمل النبي محمد عليه الصلاة والسلام من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، لعل عملها الصالح تراه الآن: «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره». «تخيلت عرش كسرى أو عروش الدنيا تتدلى فوق السحب المضيئة التي رأتها. شعرت باسترخاء، شعرت بالدفء. تحسست جيداً. نعم لا تزال في سريرها، في غرفتها كأنها في حفرة من باطون مسلح.

أرادت في لاوعيها أن تحلق في عالم أفضل، دنيا غير هذه الدنيا، نادت خالتها وتساءلت أين بريق الضوء؟. أين البراق؟. تراكمت التساؤلات. لم تعرف هل أشرقت شمس الضحى؟. أذان المغرب؟ ربي هل هذا أذان الفجر؟. سمعت صوتاً موجوداً بداخلها يناجيها ولكن ليس البراق!. إنها أحجية، لماذا أنا في الحرم المكي؟. ربما أحتاج إلى من أشدّ به أزري أو إلى ناسك متلفع بثوب أبيض يسكنني في كهفه فأعتزل الكون لأفتح باب حياة أخرى.

في لاوعيها أرادت أن تخرج من هذا الكون إلى عالم روحاني أفضل، استعانت بالبراق ليحملها بسرعة البرق وهو يرمز إلى أبيها. تقول «وكأنني طفلة على يد أبي في دنيا ضاقت علينا بما رحبت»، وهذا يدل على شدة تعلقها بوالدها الذي هو الملاذ الأمين والمنجد. والملاحظ هنا أننا لا نجد ذكراً لوالدتها في كل ما تكتب.

الأم كانت جبارة لم تجد عندها العطف والحنان المتمثل باحتواء الأب الذي حرمته الحياة من الأم ومن زوجة أنثى، ولهذا تعمدت الكاتبة أن تتجاهلها، وأن تستعيض عنها بالوالد العطوف الحنون، حتى أنها كانت تغفر له خيانته لأمها وتعتبرها حقاً من حقوقه المشروعة في ظل حياة قاسية ومعذبة..

«**والماء حين يغضب**» في هذه الأقصوصة تتحدث عن فلسطين الأم، في صوتها صمت يئن، يضج غضباً من طفل شردته يد الأعداء. ضمت طفلها إلى صدرها بينما السماء تذرف الدموع، الطفل ممسك بعلم مزقته يد الأشـرار. أصاب فلسطين سيل عارم من الوحول بعد أن كانت ماءً صافية مليئة بالحياة. فلسطين الحزينة المتألمة اختنق صوتها، اختنقت حزناً، ارتجفت في كمد على تربة دنستها خطى جنود كالجراد. تشبهها بالطيور التي تئن فتغرد حين تتألم (والطير يرقص مذبوحاً من الألم)، تتساءل عن المنابع الطاهرة؟.. عن حائط المبكى؟. عن البحيرة الأسيرة التي مشى عليها المسيح؟ عن المسجد الأقصى؟. تتساءل لماذا تُراق الدماء كالماء؟. ولماذا يُنقض الوضوء بعد كل صلاة؟.. أين الإيمان؟.. وقد خوت من المساجد والكنائس. تتخيل فلسطين أماً تمسح جبهة ولدها الملتهبة، والماء على امتداد كفيها، تعتصر منديلاً تضعه على جبينه، كلما جف نثرت عليه الماء، وعلى زجاج النوافذ رذاذ المطر ينفض عنها كوابيس خوفها من جنود الأعداء.

الطفل يبحث عن السلام فهل يجده؟. أمسك غصن زيتون، لامس ورقة التين، طارت حمامة السلام... فهل تتخلى الطيور عن أوطانها؟.. وتتساءل: هل يغضب الماء فيثور حاملاً كل شيء يراه؟. والرمل يرتشف كل يوم دم الشهداء. تقلب الطفل ليلقي

كوابيس الحمى التي أعلنت ثورتها على جسده الضعيف. قالت له أمه فلسطين «كنت تهذي بني في غيبوبتك»، فأجابها: «غيبوبتي سلبتني صحوة العيش، تركتني في غزة، في القدس، في مصر، في الشام، في بابل، في بغداد، في ثورة زهور الياسمين، في جبال الأردن، في نبوءة أنا مؤمن بها تمدني قوة إنّ خلفي امرأة جعلتني رجلاً أحب فيها فلسطين».

الأمل بالعودة قوي وهذا الصمت العربي الذي عبرت عنه الكاتبة هنا، لا بد أن يضج غضباً، وأن يهدر سيل الماء الثائر فيجرف معه كل شيء، ويطيح كل شيء وتهب الريح العاتية لتساند الماء الغاضب. وفي النهاية دعوة الدول العربية إلى الثورة على الظلم والعدوان، وإلى التعانق والتعاضد للقضاء على العدو المحتمل: إن تقلب طفل فلسطين يرمز إلى إلغاء كوابيس الحمى التي أعلنت ثورتها على جسده الضعيف والانطلاق مع صهيل الحروف لتغني أمجاد وطن تركه محاصراً في كأس وليحرره كالماء حين يغضب.

بربري في لبنان «تستحضر الكاتبة في هذه الأقصوصة شخصيتَيْ جلجامش الأسطورية وأليسار التاريخية وهي عبارة عن حوارٍ دار في الواقع بينها وبين أحد المعجبين. التقيا على الهاتف فتقمص هو شخصية جلجامش الإله المحب الذي أتى إلى صور

حيث كانت أليسار، وتقمصت هي في شخصية أليسار التي رمت بنفسها في النار لتكون وفية لمن أحبت وعشقت ولتطهر شعبها من ملك غره جمالها. وتسترسل الكاتبة في وصف جمال صور التي تفترش البحر، وتغفو على الرمال وهي تعانق بياض الثلج من صنين إلى الباروك. وتستفيض في وصف الشرق الممتد من كليوباترا إلى شهرزاد، إلى شجرة الدر وصولاً إلى أرز لبنان.

هاتفها البربري قائلاً: «جدي جلجامش وأنا في بيروت. أجابته: جدتي أليسار وأنا في طرابلس». طلب لقاءها في بيروت وهو يكلمها عن جمال لبنان رمز العنفوان الفينيقي لكنها حولت الحديث معه إلى كلمات بريئة.

كان هدير صوته أشبه بصوت معصرة الزيتون في الكورة وهو يصف سيدة لبنان في حريصا التي هي أشبه بناسكة متعبدة تحتضن البحر والجبل حتى لتظن أنك على حافة ينبوع يجعلك ترتشف منه قطرات من حب ممزوجة بدمعة مريمية: كان يغريها بلقائه؛ فحسناته البديعة البيانية جعلتها تسرح الطرف بحدائق بابل المعلقة، والبرج المائل ومدينة نينوى. وهي بدورها ترسم له جمال بساتين الكرمة في زغرتا التي تتكىء على طرابلس كأنها ملكة تمسك بنهر الحياة المنساب كنهر أبي علي، وهي تأبى أن تخضع لإغرائه رغم إعجابها به وبفنه الأدبي. هي مخلصة لزوجها

تساءلت: أيظن أني كحواء هبطت من الجنة لتبحث عن آدم. أصرَّ على لقائهما في بيروت وهو غير قادر على فهم حدود مملكتها. رفضت دعوته متمنية أن ترى فيه بعضاً من معالم بلدٍ قد امتلأت بالمشاعر الراقية الدفينة في حضارتها، وقالت له: اترك الأيام ترم لقاءً مملوءاً بشموخ قلمين، فنكون عراقاً ولبنان وقلماً واحداً في سبيل هدف واحد. هي تريده رفيق قلم وأدب وحسب. لا هي أليسار ولا هو جلجامش، هو عمه حمورابي يريد أن يأتي لينقش على متحف جبران بعضاً من كلماته إليها.

هذه تجربة حقيقية عاشتها أديبتنا. حولتها إلى أقصوصة شبه خيالية لما ضمنتها من رموز، وتوسلت فيها الأسطورة المعروفة (جلجامش). هنا تغتنم الكاتبة الفرصة لتبرز بعض المعالم الأثرية التاريخية لمدينة طرابلس التي أحبت كجامع طينال الأثري ومحرابه الذي يضطرم منه الإيمان فتأنس النفوس المتعبة إليه، القلعة التي أشبه بجبل مرتفع يعانق السحاب ولتظهر جمالها الطبيعي حيث يتلوى النخيل وهبات النسيم وعطور وبخور مريم.

«**الخاتم المسحور**» هذه أقصوصة أخرى استمدت الكاتبة موضوعها من تجربة واقعية عاشتها ولكنها كعادتها تضفي عليها من الخيال والوصف الدقيق الممتع ما يخرجها من واقعيتها.

تتحدث فيها عن شيخ دين وإمام جامع، وهو في الوقت

نفسه كاتب قصصي. هي معجبة به ليس كأديب فقط ولكن كإنسان منحه الله من الجمال المادي والشخصية ما يذكرها بوالدها الذي كان مثلها الأعلى. تخيلت أنه يمشي في صحراء مترامية الأطراف. وهذه الصحراء ترمز إلى جفاف العاطفة، ينتظر أن يرى واحة كي يجلس على ضفافها، وهذه الواحة ترمز إلى المرأة، ست الحسن أو أميرة تقدم له الحب زهواً وترفاً...

نام على ظهره مبتسماً ينظر إلى بريق الضحى وهي تبتسم له من بعيد»؛ بأشعتها. وفي كلمة الضحى هنا تورية. ناداها «حبيبتي» قالت له: «أنا الشمس إن اقتربت منك تحترق فانظر إليّ من بعيد وهنا ربما تريد القول إنّ المرأة تبقى مخلصة لزوجها رغم الإغراءات ورغم الرغبة والعاطفة المتأججة في داخلها، ومع ذلك تصبر وتمانع. تريد أن تكون صادقة وأكثر وفاءً وأمانة واخلاصاً للقمر الذي يحميها. هو هائم بها:

صوتها هامس دافئ، هي صادقة، حين يكون قربها ينسى الحياة ويعيش معها وبها فتسأله هل هو صادق أم كاذب؟.. هي تريده صادق النية. أرادت أن تختبر صدقه فتقول له: «خذ هذا الخاتم وهو يحقق مبتغاك، ولكن اعلم إن لم تكن صادق النيّات فلن يحقق لك شيئاً». وهكذا كان، نظر حوله فلم ير شيئاً فقالت

له الشمس: «ألم أقل لك يجب أن تكون صادق النية؟. وسألته أتحبها؟ وهل أخلصت لها القول والفعل؟. وهل أنت وفيّ لها؟».

قال: «نعم. وهل هي وحدها في قلبك وروحك؟ قال لا. أنا راغب بكِ فكوني لي دوناً عن البشر. قالت حلمك أكبر من حلم بشر. الخاتم معك فحين تصدق النية وتطهر روحك من حب الدنيا ومتاعها يحقق الخاتم لك رغباتك وتكون لك حورية كما تتمنى».

في هذه الأقصوصة تبين الكاتبة أن الصدق هو السبيل الوحيد إلى تحقيق الأهداف، والوفاء والإخلاص هما جسر متين يعبر عليه الإنسان للوصول إلى بر الأمان.

وفي كل ما تقدم تبين لنا أن الكاتبة توسلت كثيراً من تقنيات السرد القصصي كما يظهر في بناء نصوصها بطريقة التسلسل والتتابع، واجتهدت في تنميتها وتطويرها لتصل بها إلى شيء من التشابك على براعة فنية تستثير وتُفرح وتُحزن وتجعل القارىء مندفعاً فيها من البداية إلى النهاية..

أجادت في الوصف والتصوير ولم تكتف بالتصوير من الخارج إنما عمدت إلى تصوير ما تضطرب به النفس من الداخل كما في قصة «شقائق النعمان» و«زهر اللوز وموت رغم الربيع»، والحوار الذي بنت عليه الكاتبة قصة «الخاتم المسحور» وقصة

«بربري في لبنان» يُعتبر من أهم أساليب التعبير في كل أثر قصصي أو روائي، وفيه عمدت إلى عرض الأحداث الخارجية والداخلية بكلام الأشخاص أنفسهم، إذ يخاطب أحدهم الآخر أو يناجي أحدهم نفسه في حوار ذاتي كما في قصة «شقية أنتِ» و«غاوية»..

في الختام أتمنى للأديبة ضحى المل دوام النجاح والتألق، فهي على طريق الإبداع الأدبي..

مع محبتي

حياة حدارة

أبو شلبي..

كـان يجلس بصمت، وضجيج الأصـوات يرتفع في الساحة، حيث قهوة التل العليا، ينظر إلى الساعة القديمة التي تذكره بساعات أمضاها وهو يمسح الأحذية للمارة. وأمامه المنشية، وهِي حديقة جميلة، ملونة بألوان الزهور المختلفة فيها، وشجيراتها الصغيرة المنسقة كأنها حوريات ذات جمال فتان.

نظرت إليه من بعيد. ملامحه رغم مرور السنين لم تتغير، خطوط صغيرة تشبه أشعة الشمس حول العينين الناعستين، وأنامله الطويلة التي كنت أميزه بها وهو يلاعبني طفلة، وأبي يستقبلني في مَحله القديم قرب بركة الملاحة.

ابتسمت واقتربت منه: «عم أبو شلبي ما زلت حياً؟».

نظر إليّ نظرة استغراب بعد أن رفع عينيه ليتأملني وضحك: «أما زلت تتذكرين أبا شلبي يا صغيرة؟».

ضحكت وقلت له: «ألم تنس «يا صغيرة»؟ تلك الكلمة التي كانت تغضبني».

كانت أحلامه تحظى برعاية كلماته التي طالما عشقتها، وحكاياته التي كان يرويها لي حين أراه عند أبي رحمه الله.

وقف أمامي بشموخه المعتاد وقد أحنى الدهر ظهره، ويداه ترتجفان. قال:

«انظري، هذه أكبر شجرة هنا في ساحة التل، وهي تحظى برعاية البلدية ورعاية زوارها، فهناك من يشذبها، يقلم أغصانها فتبدو يانعة فاتنة. أما أنا فأنظر إليها ولا أستطيع الاهتمام بها، وأنا الذي طالما وقف تحت ظلالها.

وانظري هناك، إلى تلك الشجرة الشاحِبة الصفراء الهزيلة وإلى أوراقها الذابلة وعصافيرها المذعورة. كلما اقترب منها أحد، طارت العصافير هاربة من أغصانها».

هز رأسه، وأشار بيديه إلى ساعة متدلية من جيبه، تمتم بكلمات، وأكمل:

«هي استسلمت للقدر حتى يئست من البشر الذين لا يقتربون منها ولا يهتمون بها. وها هي كئيبة حزينة. سأقتلعها يوماً لأجعلها تذكاراً لي، لأنها تذكرني بحياتي كلها التي مرّت».

مسح دمعة واستدار ومشى كأنه لا يراني أمامه، ناديته: «عم أبو شلبي كيف لي أن أزورك؟».

ابتسم ابتسامة سخرية وقال: «أبعد كل هذا تسألين؟».

زهر اللوز وموت رغم الربيع!!

كان يوماً ممطراً كغير عادته من أيام السنة، مطر وعواصف رعدية في شهر نيسان، أعشاش العصافير على الأشجار يتطاير بعض منها، وزهر اللوز الأبيض ملأ الأرض بياضاً، فالناظر من بعيد يظن أن الثلوج قد غطّت الأرض في بستان جدّتي...

كنت حينها لا أستطيع النهوض من عوارض الحمل المُتعبة التي تجعلني كالمخمورة وسط نهار يعج بالمفاجآت حين سمعت المؤذّن في جامع القرية ينادي: يا عباد الله، أختكم بهيجة انتقلت إلى رحمة الله...

لم أدرك ماذا أسمع، هل أنا نائمة!؟.. أم أحلم!.. وكيف لم يخبروني!.. لماذا؟؟..

أيعقل وهذه جدّتي؟.. لا لم أكن لأصدّق كل ما يحدث، ركضت نحو الباب لكن لم أشعر بقدمي الثقيلتين على الأرض. حاولت أن أدرك ماذا يحدث لكنني أحسست كأن غرفتي أظلمت،

أسمع الأصوات حولي ولا أستطيع النطق لأقول أنا أسمعكم، ظننتُ أن الموت دنا مني وأنني على المغسل مُمدّدة، وما سمعته إنما هو كابوس مزعج ما زلت فيه...

شعرت بشيء غريب يدخل أنفي، فتحت عينيّ لأرى الناس من حولي قد تجمعوا وزهر اللوز ما زال يتساقط، فصرخت جدّتي! سمعت إحداهن تقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون، لا إله إلّا الله... ».

صرخت فيها ماذا تقولين أنـت؟!.. نظرت إلى وجوههن الصامتة كأنهن فقدن لغة الكلام، حاولن الإمساك بي لمنعي من الدخول لكن عبثاً يحاولن، فتحت الباب بقوة رغم الناس المتجمعين عندها وكأنهم لا يريدون مني الدخول، كانت كعروس مُمدّدة على فراشها وغطاء رأسها الأبيض كأنه يبكيها... هي التي طالما أمسكتْ به وهي تضعه على رأسها حين كانت تناديني من النافذة، ضحوتي أنتظرك، فالقهوة ساخنة لكنها لم تفتح عينيها الخضراوين لتراني..

أحسست بدمعتي ساخنة على خدّي. مسحتها وبدأت أعي أني في جنازة جدّتي وصوت القرآن يرتفع في البيت.. كأن هذه العاصفة تبكيها قبل أن أبكيها أنا وهي التي بقيت بقربي عشرين سنة إلّا قليلاً...

نافذتها قرب نافذتي تناديني: ضحوتي، فأُلبّي نداءها، ارتجفت يدي وأنا ألامس وجهها.

كأنها تنام بعمق، ولم أشعر بوجود أحد إلّا حين نادوا ليرفعوها إلى المغسل، شعرت كما لو كنت سأساعدها على الاستحمام كعادتي وتذكّرت ما قالت لي: ثيابي في الخزانة أحضريها ضحوتي...

أحضرت لها ما طلبت، طلبت من النسوة الحاضرات مساعدتي كي أضع لها على رأسها غطاءها الجميل الذي صنعته بنفسها ليومها هذا...

لم أشعر بثقل هذه الثواني إلّا حين رُفعت على الأكتاف، وقد لُفّت بشرشف أبيض كزهر اللوز المرمي على الأرض، شعرت كأن الكرة الأرضية تدور دورانها الشديد حول الشمس!.. حاولت أن أنظر أمامي فرأيت اللون الأبيض قد غطّى المكان ووجه أنثى وهي ترتدي مريولها الأبيض وتضع سماعاتها في رقبتها تقول لي: الحمد لله على السلامة، المهم أنت بخير، سألتها ماذا حدث؟ قالت: خير، اضطررنا لإجراء عملية لإخراج الطفل، فقد مات نتيجة صدمة عصبية...

عروس على كتف أبي علي...

في حوار النفس التي تعودت أن تعترف بمساوئ يوم واعتراف ذات!.. من عذراء أتمّت مغفرتها جلست والأشجار من حولها تُعلن الشموخ والغفران!..

لقلعة رابضة على كتف أبي علي وهو يعزف لها بصوت خرير ممزوج بصخب نهار وحركة الأقمار والكواكب من حولها..

من كل نافذة صغيرة ترى المدافع القديمة التي أصابها الذهول، فصمتت بعد أن كساها الصدأ لوناً أصفر، شاهدتُ عينيها وكأنهما تراقبان من حولها بحذر وهي التي أصبحت بعمر الشيخوخة ولم يزل جمالها الفتان يذكّرنا بماضي مدينتنا العريقة...

شُجيرات النخيل تتمايل كأنها جاريات حسان يرقصن على عزف نسيمات رقيقة تُداعب جفون السماء ليبتسم ما بقي من أيامها، وما زال بريق أمل في فم السنين التي تأكل من أيامها فتزداد نوراً على نور...

ما تبقى من يومي بعث في ذاكرتي جمال طفولة أمضيتها وأنا أسير قربها والحياء ينبعث منها، وهي الجميلة الفاتنة عروس طرابلس الخالدة سان جيل حبيبتي...

راهبٌ وقفت على راحتيه، فأصبح جبلاً مُطلاً على عرائش مدينة أرخت جدائلها على كتف الـوادي ورسمت على بابها الخشبي الكبير تاريخ عراقتها بعد أن أوهمتنا بتلاشي تاريخنا...

كنت أسير على مقربة من القبور التي نامت قربها، ولم أستأنس بعطر الزهور التي فاحت وهي تفرشها على أرضها التي تملأها الحجارة بعد أن فتحت لي باباً صغيراً في أسفل البرج الثاني المطل على البيوت القديمة المتناثرة التي تدلّنا على العراقة..

تُزيّنها المزاغل والمكاحل وكأنها تبسط زينتها لنراها عروس الشمال.

كنت مُمسكة بزهرة النرجس وعطرها يفوح مع رائحة حُجراتها المرصوصة المبللة بالأمطار والتي جعلتني أشعر أنها ملكة، وملوكها غرفها الفسيحة، وشعرتُ أنني لست وحدي في القلعة وكأن أصحاب الكهف والرقيم استفاقوا..

الفينيقيون.. الرومان، البيزنطيون، العرب، الفرنجة، المماليك والعثمانيون مروراً بالفرنسيين.. يلهثون وأطيافهم

لا تزال كأشباح قابعة في مكان يلفه الماضي الجميل وصوت بركة الملّاحة التي ابتعدت عن حضن القلعة إلى داخل الأسواق كأنها بركة ماء مغناج مدللة بقطرات مياهها العذبة التي تذكرك بعذوبة طرابلس بكاملها، وأنت تتذوق مياهها كأنها عزف كمان منفرد.. كل هذا خيال له سحره ونحن نرى النقوش عليها.. إنها عروس الفيحاء المتكاملة والتي تفتح باب أحيائها وأسواقها ودورها ومعالمها التاريخية خصوصاً البيوت الصغيرة أميرات شرقيات عثمانيات تركيات...

عبق التاريخ فيها كبخور نستنشق رائحته وأنت تشعر بسحر الشرق والهواء البارد يلامس الوجوه، وكأن القلعة من صنع الجن والإنس وارتفاعها عن النهر كأنه يجعلها من تكوين الأرض وخلق آدم وحواء، فإن رأيت فقراء كادحين يصنعون أشكالاً حرفية فهم سكان طرابلس الأصليون بقلوبهم البيضاء الناصعة، وإن رأيت جامع البرطاسي فهو الباقي من عهد اندثر وترك لنا آثاراً نفتخر بأصالتها، وإن سمعت ضجيج الباعة يوم الأحد!.. فذاك سوق القلعة القديم وكأنك فعلاً بين أشباح الماضي في حاضر عجيب...

غاوية...

أين البقية يا تُـرى؟.. لا أرى سواك هنا!.. وحيدة أنت ستكونين بين أناملي.. لامَسَها بأصابعه التي امتدت إليها وهي صامتة تنتظر شعلة من نار كي تنطلق في الأجواء برقصة كونية لا خلل فيها إلّا أنها صُنعت لتكون موماساً بين الشفاه..

يبدو كل شيء سهلاً، كي يبدأ ثورة جنونه التي لا تنتهي إلّا حين ينتهي من إغوائها كي يربح الرهان ويستريح من توتر أعصابه، بفقدان رجولة لا يعي أنها رهان نفس أمّارة بالسوء، ولكنه يرافقها برغبة قوية واشتهاء، لكنه اشتهاء عابر مُتنقّل من طبيعة الإنسان التي امتلكها بسلوكيات مشوّهة جعلته يطوف عكس خليقته..

على خوف وضعها أمامه تأمّلها!.. تساءل!.. لماذا تغار منها زوجتي؟.. لا أفهم غيرتها هذه، فقد أصبحت بعمر لا يقبل النصائح والجنون، ربما جنون النساء يتخطى حدود العقل..

بدأت تَشتعل، فلونها الأرجواني المثير بدأ يُشعرني بالسعادة،

وهي تُلامس شفاهي بقوة!.. برغبة!.. بدفء غريب تجعلني أستريح هذه «الملعونة»، فأهدّئ من توتر أصابني، اسمعي، لحظات وسأعود إليكِ..

سأفتح النافذة كي لا تشعر زوجتي بعطرك الأخّاذ الذي يشدّني إليكِ كل مرة، لا تخافي حبيبتي لن يجرؤ أحد أن يأخذك مني ولو صرخ بنا عالياً، هيا تعالي إليّ صغيرتي، يُعجبني صمتك، يثير عطرك حواسّي، فأنتِ في كل مرة تشتعلين أشعر أنك مختلفة عن كل مَنْ عرفت...

حين ترتعشين!.. تتراقصين!.. ترتفعين وتتمايلين بطيفك الذي أتأمله فيغريني، وأنا أشعر بشفاهي مُخدّرة كلما أحاطت شفاهي بقوامك الطويل...

رافقيني قليلاً لأكتب ما بي من شغف واشتياق لها، لحبيبتي التي دائماً تجعلينني أشعر بغيابها، أشعر باشتياق لها يخنقني!.. يحرقني كما تحترقين أمامي، عطّريني أرجوك ماذا حدث؟.. سأجعلك تستريحين هنا أمامي، لكن أرجوك لا تتراقصي بعطرك أمامي.. لست مُنافقاً، أحبّك لا تخافي!. لكن هي لامست قلبي وأنت تلامسين شفاهي، هي حاضرة بغيابها عني وأنت غائبة بحضورك الدائم معي، هي تملأني حبّاً وأنتِ تمتلكين فن الغواية، فتغويني!.. وترافقيني في كل مكان وفي خلوتي. أعرف أنك تثقين

بي، أشعر أنك ستنتهين.. ستصبحين رماداً عما قريب، سأكتب برمادك لحبيبتي رسالة أجعلها تعشقني أكثر. ما رأيك؟؟.

جميل صمتك هـذا!.. حبيبتي تعالي إليّ لأضمّك بين شفاهي وأقبّلك قبل أن تنتهي، لكن أعدك سأضع البقايا في منفضة سيارتي لتصبحي في ذكرياتي أجمل من راقصني، وأجمل من اهتز بين أناملي وجعل الوحي يأتيني فأكتب أجمل كلمات الحبّ لحبيبتي...

تغارُ منكِ؟ نعم هي تغار منك إن رأتـكِ بين شفاهي، ستقتلك، ستنفيك، سترميكِ، ستنتقم منك لن تسامحك أبداً..

لهـذا سـيكارتي حبيبتـي سـأخفيك بمنفضـة سـيارتي فسامحيني...

«ستعرف ما بيننا»...

طردت هواجسها خارج مُخيلتها، انتظرت أن ترى عينيه قبل أن يمسح مَخاوفه عن أجفانه، فيقينها أكبر من شكّها حين تسرَّبت الوساوس إلى عقلها..

داعبت خصلات شعرها في ليل امتد سواده وغطّت عتمته وجه القمر.. مسحت غبار الزمان عن أوراقها البيضاء، كي تُكمل حكاية حُبّ لم تنته، بل بقيت عالقة بين خطوط الزمان والمكان!. لأن دهشة القدر صنعت خوفاً من الحُبّ، خوفاً جعلها قادرة على متابعة الحياة دائماً..

لم تسمعه وهو يُثرثر، بل شعرت كأنّ عصافير الكون تُغرّد، كأنها تعزف سيمفونية البقاء والخلود، كأن الربيع يُزهر ويمدّ كفّيه سهلاً وجبلاً، لتمشي بقامتها الطويلة بين الخُضرة وأزهار البنفسج، تضم ورودها الذابلة بين كفّيها، كأنها تَنثر عطرها قبل الموت على بصمات كتبت وداعاً وصمتاً غالباً!. رغم صوت الريح خارجاً وهي تُزمجر غضباً من حدث كانت متأكدة منه قبل حدوثه!..

هل تمتلك المرأة حدساً أنثوياً يجعلها تشعر بوقوع الحدث قبل أوانـه؟.. فيما مضى كان العطر خلف أذنيه يفوح من حُبّ يدغدغ قلبها والشعر يتناثر كأنه خيوط الليل التي تنسج منها وسادات، كي يضع خدّيه عليها ويغفو لتحرسه في صلاة تمتد في محرابه ضحىً حتى لحظة وداع..

لحظة حقيقية في مصير يتلاشى وضوء كان من بعيد كأنه شُعلة سيدنا موسى قبل أن يخلع نَعليه، فأصيبت بذهول حقيقي جعلها صامتة مبتسمة والثلوج تتساقط في الخارج...

تركته يتكلم كأنه ببغاء لا يفقه ما يقول! إلّا تكرار مفردات سمعتها من قبل! هل يعترف لنفسه؟.. أم يعترف لها؟ هل يؤكد شكّه في يقينه؟.. أم الشك تسرّب إلى قلبها قبل أن يتكلم؟.. ارتسمت بسمة على شفتيها، كأنها بسمة فجر وُلِدَ مضيئاً بحقيقة عرفتها نبوءة من حدس أنثى إيمانها وجودها، وقلبها حُب هو من فيض كنهر يتوجه نحو البحر بثقة المتناغم المتصالح مع نفسه ليكون مالحاً، رغم حلاوة المياه العذبة التي تتصاعد منها الأبخرة الباردة في شتاء قاس عنيد..

فيما مضى... كان يبدأ الحياة بأحرف ممزوجة مع آيات كزهر الخزامى، يجعلها قديسة كل مساء! حتى كأنها في أديرة من نجوم بات الحُبّ فيها كأنه نهر طهارة لا قُبلة فيه، فتوحدها مع روحها جعلها نسمة فجر يتوضّأ في معبد الشمس...

وسط هذه الهواجس والخيالات الجميلة التي تمر أمامها.. شعرت كأنها وسط أكفان بيضاء تشبه غيوماً تتخطى ناظريها، وهي تقرأ حروفاً تركض إليها تُناديها لا تحزني ضحاه، هذه صور من الحياة لنجعلها ملونة!..

أمسكت قلمها وبدأت ترسم ثلوجاً تغطي زهوراً ربيعية، فأين الندى؟.. أين الينبوع الذي تشرب منه كلما شعرت بظمأ؟.. أين زهور الحياة لتبكيني؟.. همست كعجوز في أيامها الأخيرة «ستعرف ما بيننا» تأمّلت حروف هذه الكلمات..

ما هو حرف السين يا ترى؟.. هل أنا مخطئة؟.. هل هي خوف من المستقبل الآتي؟؟ هي قدر مُخبّأ؟.. هي مخاوف أشباه الرجال؟.. لامست خدّيها لتمسح دمعة فتشت عنها لم تجدها؟.. تساءلت!.. أين الدمعة؟؟.. أين الحزن؟ أين الفرح؟.. هل أحيا الآن؟.. كأن صدمة الحروف هذه صفعتها قبل أن يصفعها القدر..

شعرت برائحة زكية تُداعب حواسها، نظرت من نافذتها فرأت الثلج يتساقط كأنه في عرس كوني، لم تشعر ببرد كانون وهو يودّع عاماً ثقيلاً بارداً كأنه يودّع لحظات تشبه حلماً كالأراجيح، فممحاتها كانت تمحو دائماً كل سيئة تصدر من حبيب ترسمه كلماتها، ليكون في عالمها شاعراً بأحاسيسها المتمزقة في مشاعر أعلنت العصيان على زمن مليء بالطغاة.. مدَّت يديها كي تشعر

بذوبان الثلج الذي يتساقط، لكنه كان يذوب قبل أن يُلامس كفّيها..

ارتمت على أرجوحتها، أغمضت عينيها شعرت بصدره الدافئ وكأنه يضمّها، يهمس لها لا تحزني صغيرتي..

- أنا معكِ لا تخافي ستندمل الجراح، فطيفي يحرسك أبداً..

ارتعشت خوفاً من ذكريات أغلقت أبواب الزمان عليها.. نظرت نظرة جامدة إلى وجه الليل وهمست أين أنت حبيبي؟..

كان الحزن قد بدا وهي تنظر إلى ورقة كتبت عليها هل تحلمين؟..

- لم أشعر بكَ خائفاً من قبل، كان حُبّكَ يدفعك إلى الاهتمام بي، حتى وأنت غائب!.. ما زلت أحيا من كلمات لم أعرف معناها، ولم أشعر بقوة الحبّ فيها إلّا بعد أن غادرتني.. لماذا يحدث كل هذا أيها القدر؟.. أهي مقارنة بين رجل أحببته، ورجل أحبّني؟....

يا لهذا الأنين متى سينتهي؟...

بدأ صدرها يعلو ويهبط كأنه الأرض التي تتساقط عليها الثلوج، لماذا يخاف الرجل من علاقة حُبّ كان يَحياها؟!.. خجلاً!.. هروباً.. ضُعفاً من قلب لم يعرف الحبّ الحقيقي؟!.. صراعات، كأنها تشاهد فيلماً مثيراً أبطاله أحياء.. أموات!.. أشباح!.. بشر يموتون قبل أن يعيشوا...

– أيتها الطفلة أما زلت تفكرين؟؟.

يسمو الحُبّ ويكبر ثم يرتفع ليعانق طهارة الحياة في قلب مُفعم بالطفولة لكن للكون لغة مادية انفعالية تعبّر عن حالاته.. حزنه وفرحه.. حُبّه واشتياقه ترسم الطبيعة بعضه، فمتى ستفهمين؟!...

– أيضاً حرف السين هنا؟.. فهمت أنك تحبّني...

– هو عتمة وأنا ضوء، هو حرف وأنا المعنى!.. تركت لك رسائل كي لا تشعري أنني مُتّ، فكيف تفكرين به وهو الخائف الضعيف؟..

– ليتني أحبك؟...

– أنت تحبينني ولكنك لا تدركين، ولا تعترفين؟..

– هو مُحارب؟..

– لا حرب في الحُبّ.. هو سلام هو طُهر.. هو وضوء جسدين في محراب الحياة.. الحُبّ لا تعريف له صغيرتي..

– هو نبي؟..

لا أنبياء في الحُبّ، فما من نبي إلّا وبلغ رسالة للبشر، هو من تنعكس على روحه الأشياء فيصفها بشفافية؛ فالنبي محبة شاملة لا تعرف الأنا، بل تمتزج لتكون قدوة وقنديلاً وضوءًا ونحيا نحن الحُبّ..

هو شاعر؟؟..

الشاعر لا يخاف حرفاً نبع من قلبه!.. ولا دهشة حُبّ أصابته!.. ولا يقيناً يقتله شك!.. هو كلمة فيها سر الوجود وسر البقاء..

- لماذا الآن تولد؟!..

- لأنني حيّ فيك وبك ومعك، أنا الحقيقة التي كنت تخافين منها...

- ألست خائفاً من أن تعرف هي ما بيننا؟..

- حُبّكِ لا يجعلني أخاف!.. حُبّكِ معي وبي يرافقني!..

- ولغة الجسد؟!...

- حين تنطق الروح رغبة يشتعل الجسد كأنه قمرٌ يضيء عتمة المحبّين.. كنت على يقين أنك ستعرفين كم أحبّكِ...

لنرمِ الياسمين على الأرض كي تُزهر ورداً، هذا هو اليقين، الآن تعرفين...

شقية أنتِ....

أمسك فرشاة الشَّعر!.. نظر إلى وجهه في المرآة، لكنه سرعان ما وضع قُبّعته الصوفية على رأسه وخرج يطوف بحثاً عنها...

كان زفير الصباح البارد، كموسيقى تخرج من فم عصفور مُتعب يستميل الحياة إليه بفنّه المعهود.. والريح الصباحية تُعانق وجه النجمات التي بدأت تختفي، لتصبح غير مرئية، فيبقى طيفها نوراً، والغيوم تتراقص مُتهادية في سماء تمسح نُعاسها عن عيون شمس تغتسل بينها، بينما الزهر يُرخي أكمامه، فيتلوّن القرنفل، ويتنفس الورد في وجه الصباح، ويتشابه الياسمين ليستحيل عطراً عابراً الأكوان، فيلامس الأفئدة في كل حين...

في هذا الصباح مشى والحيوية!.. فيض يتدفق في جسده النحيل، وأصوات الخُطى تتعالى كأنّها حوافر خيول تدقّ الأرض سعياً. تساءل في نفسه! هل سأجدها كما رأيتها أول مرّة..

تتألق بهاء كأنها تحمل ألوان الفراشات التي تختصر الفصول كلّها؟!...

هل سأحملها بين يدي، لأجعلها تلامس عنقي، فأشعر بها على صدري كأنها تمتص أحزاني؟!...

نعم، دائماً ستكون معي، سترافقني بيّ وفيّ.. يا إلهي.. ما أجملها!.. حين رأيتها أول مرّة جذبني سحرها وتناسقها، فحين لامَستها أصابعي شعرتُ أنها لي..

آه.. ليتَ ما ادخرته يكفيني لأمتلكها.. ستزيدني جمالاً، ستجعلني مُشرقاً، سأشعر بالفرح وعيون أحبّتي تنظر إليها، وهي تتمايل على صدري كأنها رقّاص ساعة يتدلى، ما أجملها!...

تذكّر كلمات أبيه عنها «حين تختارها.. عليك اختيار الأفضل منها، لأنها لمسة الرجل الأخيرة قبل أن يُنهي أناقته.. هي عنوان شخصيته، وهي التي تدلّ عن ذوقه وحسن اختياره، وحين تضعها على صدرك!.. يجب أن تكون كميدالية تفتخر بها كي تراها العيون، وتشعر أنك رجل مميز بين الحضور»...

مشى مسرعاً كي يراها ليأتي بها.. وهو غارق في تخيّلها مستلقية على صدره المتعب لتمتص أثقاله من خلال ألوانها، وهو الذي انتظر شهوراً كي يجمع ثمناً لها...

نظر من بعيد فلم يجدها.. أين هي؟.. وجد الكثيرات من الجميلات، وقف في صمت يتأملهن، فكل واحدة منهن مختلفة في ألوانها وقوامها، فأية واحدة سيختار لسهرته اليوم؟.. ملأت الحيرة قلبه وشعر بالحزن لأنه كان يريدها هي فقط، لكنه لم يجدها...

أين هي يا ترى؟.. بدأ يفتش عنها ونظره كالبرق يبحث هنا وهناك، لكنه لم يجدها.. يا إلهي!...

شعر بالحزن لفقدانها لكن سرعان ما شدّ انتباهه جمالهن، فكل واحـدة مختلفة عن الأخـرى لوناً وشكلاً. أوه!.. هذه جميلة!.. لامسها.. وضعها على صدره، لكن لم تعجبه كثيراً...

سترافقني هذه.. ما أجملها، إنها مختلفة عن تلك، فهذه ألوانها خريفية مع حُمرة بسيطة، أمسكها بيده!.. مدّها على كفّه!.. تأملها طويلاً!.. تساءل: هل تناسبني يا ترى؟!...

عاد إلى البيت مسرعاً، كان غارقاً في التفكير كأنه في موج سريع المدّ.. اغتسل.. تعطّر.. فتح الخزانة كي يختار قميصاً لسهرة رومانسية مختلفة مع حبيبة مميزة.. لبس بذلته التي يُحبّها، أمسكها، وضعها على صدره..

آه ما أجملك!.. شمّها.. يجب أن تتعطّري.. رشّ قليلاً من

عطره عليها.. لفّها على عنقه وربطها.. ربطة أنيقة تدلّت على قميصه كقطعة لونية تزيّن بها..

آه... ربطة عنق جميلة أنتِ.. أخيراً امتلكتكِ.. شقيّة أنتِ!.. سأحتفظ بك دائماً مع هذه البذلة.. سأكتب تاريخ اليوم على قماشك الناعم، لأنني اليوم سألتقي بحبيبتي لأول مرّة، فهي جميلة وقوامها رشيق، هي فاتنة كانت...

هي في قبضة الريح...

بدأ يوم آخر، وصوتها في هدوء ونغمة ساحرة، كحفيف أوراق الخريف، كصوت ماء يجري، كمطر يعزف نغمات إيقاعه ثم يغيب ويهدأ، هكذا رآها أول مرة وهو يُراقب حركاتها وانفعالاتها، صوتها ولونها!.. حبات الألماس التي تتزين بها ورقصها المستمر...

كان الصباح يتمايل على أكتاف الجبال، والشمس تدغدغ بدفئها الأرض، فيتراقص العشب وتغرد الطيور في أحضان الكون...

كان يجلس على كرسيه الهزّاز في حديقة تمدُّ كفيها للأرض وهي أمامه كالريح التي تحرك الأشياء تحريكاً مزعجاً وهي الحرون التي تغيظه، وكأنها تشير بأصابعها إلى نهاية حتمية لا بد منها... كلما أغمض عينيه رآها في مخيلته كريح ساكنة على يديه. غريدة كروح تتمايل قبل غروب شمس موحشة غامضة تجعله يدرك صباحه من مسائه...

ما زال يراقبها!.. يتأملها!... كما كان يفعل من سنين. كان يراها فاتنة بلونها الفضي، المُشع وهي تلاعب أصابعها بنشاط وحركة تثير فيه لذّة النظر إليها غير مُهتم للوقت، وغير مُهتم للزمان، وهو ينطلق إلى عمله بعد أن يودعها ومن ثم يعود فينام على صوتها الساحر لتغني له فجراً، فيستيقظ والنشاط يملؤه لينطلق إلى عمله صباحاً. هكذا مضت السنين قبل أن يتقاعد ويُنهي خدمته العسكرية...

صوتها كان يُثير فيه لذة الحياة... أغمض عينيه بعد أن استرجع ذكرياته في تنهيدة متقطعة، وكُرسيه الهزاز، يهز ببطء كأنها كرسي عجوز في شيخوخة مخيفة وهي التي لم تعرف لذة الهدوء يوماً قطّ...

يا الله!.. صوتها بدأ يزعجني، شدَّها إلى صدره لعلها تتوقف لكن عبثاً صوتها المُزعج في أذنيه يُطقطق... يُتكتك كأنه منشار خشب يئن كل لحظة من تقطيع لم يمل منه، ولم يشعر في ضجر يوماً، فقد كانت تتغلغل في روحه وجسده كلّما سحره صوتها، فيستفيق كي لا يقف قلبها عن الخفقان لأجله...

عبثاً حاول أن يجد الهدوء والسكون ليستريح من صوتها الذي يضمه مع ذكريات هاربة منه إليه، نظر إليها نظرة المتألم!.. تراءى له أنها تجمّدت، بعد أن بعثت في نفسه شعوراً بالموت

المقترب منه.. ليتني لم أحلم بها يوماً.. ولم تكن بدء حياة جعلتني أشعر أنني أسير وسط خط عمر كأنه الصراط الذي أخاف الوقوع عنه... أصبحت كالمجنونة!.. كم أتمنى التخلص منها وهي ترتجف أمامي تارة، وتتجمد تارة أخرى ووجهها القبيح يجعلني لا أغمض عينيّ في أمـان، بل لا تجعلني أستريح، هي دائماً تجعلني أتقلّب في سريري خوفاً منها... غمرتها الشيخوخة وباتت منهوكة القوى. أمسكها بيد ترتجف ورماها بعيداً ولم يلبث صوتها أن تلاشى تاركاً خلفه ذكريات..

أحس بالندم، مشى وشعاع الشمس عند المغيب بدا خجلاً. مشى نحوها هادئاً.. ساكناً.. حزيناً نظر إلى عقاربها التي لم تهدأ طوال سنين أمسكها بقبضة يده ووضعها في جيبه وعاد إلى كرسيه بعد أن خيم السكون كأنه سكون المقابر لكنه سرعان ما ارتجف جسده النحيل، وصراخ زوجته في أذنيه يسري في جسده بعد قشعريرة خوف أصابته... أين هي أيها العجوز؟....

ضحك.. هههههه ضحكة خجولة وقـال: هي في قبضة الريح...

أحجية الوداع

دفعة واحدة أحسستُ كأن الشرق قد أضاء أمام عيني، أرض ما زالت تتّسع وتمتد كأنها بحر هادئ يُخفي أسراراً في ليلة عمّ فيها النور والقمر لا يزال مُتربعاً ومُتوهجاً في عليائه. لم أشعر إلّا بثوان قليلة كأن الضوء حملني على البُراق والدنيا تبسّمت وأسنانها اللؤلؤية تضيء كأنما معادنها المخفية خلف شفاه لا نراها...

هل أحلم؟؟؟.. هل هذه رؤيـة؟.. هل ما رأيته المسجد الأقصى؟.. أم أنها بشرى أتوق لمعرفتها والعيش في أفيائها؟.. أم أنها أحجية؟...

لماذا كل هذا يحدث؟.. فتُطوى الأكوان وتفتح السماء كفّيها، يحملني البراق وكأنه ضوء ساطع مرّ بي بلمح بصر خاطف، كأن سرعة الضوء، سرعة تتخطى حدود الخيال، وتمحو خطوط الواقع لتكون خطوطاً نورانية تلمع.. تشعّ..

كأن الربّ قد خلق الأرض من اللؤلؤ والمرجان، هل هي تلك المسمّاة ذرّة؟.. فمن يعمل مثقال ذرّة!.. هل هذا مثقال ذرّة من عملي أراه الآن؟.. أم أنه كوكب سيّار مُضيء مرّ كالأطياف والخيالات؟؟..

لعل هذا عرش كسرى أو عروش الدنيا تتدلى فوق السحب المضيئة التي رأيتها؟!.. شعرت باسترخاء غريب وانتعاش وكأن صدري استنشق الهواء لأول مرّة...

تحسّست من حولي بيدي وأناملي تمسك بأطراف غطائي الصوفي الأحمر، فشعرت بالدفء يتسرب إلى أعماقي، أرخت أناملي الغطاء، وتحسّست جيداً... نعم لا أزال في سريري... هذه أنا لا أزال هنا في الدنيا...

راقدة في مهدي كنرجسة برية صفراء تُشرق مع صبح نائم على يدي، تأملت وتأملت بعد أن أطبقت أجفاني مجدداً كي أستعيد مشهد ما رأيت، ما الذي حدث؟.. ما كل هذا؟.. ألغز مبهم هذا الذي يطوقني؟.. أعدت النظر إلى سقف غرفتي المغلق كأنني في حفرة من باطون مسلّح لولا النسائم الشتوية التي تداعب أنفي وأهدابي وهي تتسلّل من نافذة غرفتي...

ضحكت حين نظرت وأنا نائمة في سريري لأرى السماء من خلف قضبان النافذة... ربما دهشة الحياة كدهشة الموت أو

كدهشة رؤيا رأيتها وجعلتني أتحسّس حتى جسدي لا أدري.. يغمرني الفرح ولا أستطيع النهوض من فراشي.. آه.. ليته قربي، ليته يداعب خصلات شعري، فأشعر بوجوده ويمدّني بالسكينة.. ألتئم معه نبضاً وحناناً وتناغماً يجعلنا على بساط الضوء، عدتُ فأغمضت عيني لأكمل نوماً حالماً يجعلني أغرق أكثر فأكثر، فلا أشعر بوجودي في هذه الدنيا.. أحلّق في عالم أفضل ودنيا غير الدنيا..

تعالي خالتي واجلسي قربي..

خالتي؟!!!..

يا إلهي خالتي فاطمة هنا؟!.. أين بريق الضوء الساطع؟؟ أين البراق أخبريني خالتي؟؟.. ماذا تفعلين هنا؟..

أنا في الحرم المكّي..

هل حملني البراق إلى الحرم؟..

خالتي فاطمة أين أنتِ؟..

يا إلهي ما هذا كله، كيف أفتش والصمت يطبق على المكان ويخيم عليه؟ عاد الضوء الساطع ليحملني بسرعة البرق، انتعشت جوارحي وكأنني طفلة على يد أبي في دنيا ضاقت علينا بما رحُبت...

تراكمت التساؤلات: أشرقت شمس الضحى؟.. ما هذا أذان

المغرب؟؟ ربّي هل هذا أذان الفجر؟.. حرّكت شفاهي، استغرقت في عالم الصمت المطبق، أنه يناجيني.. عبثاً لم أستطع الكلام لكن الصوت موجود داخلي وأنادي باسمه لكن ليس البراق؟؟!..

سأرخي رأسي على الوسادة، ما هذه الأحجية؟؟؟ وأين خالتي فاطمة رحلت؟.. ولماذا في الحرم المكّي؟.. ربما أحتاج إلى من أشدّ به أزري؟.. أو إلى ناسك متلفّع بثوب أبيض يُسكنني في كهفه فأعتزل الكون لأفتح كتاب حياة أخرى..

شقائق النعمان يا أبي

نَظرتُ إلى ألوان الحقل المغمورة بلون أرجواني وكأنَّه يَتماوج، ليفتح أحضانه لأحلامي وحَفيف شقائق النعمان يشبه صوت قَلم الرصاص وهو يَرسم على الأوراق البيضاء حكايات حُب وهَمس حنون..

أنصتتُ !... صَمتت روحي للحَظات، كأنَّ الكون أنهى مشواره الطويل وأنا أقف في جنة مَليئة بشقائق النعمان...

تذكرتُ يوم حملتُ زهرة من بستان جدتي فرأيت وجهاً جَميلاً ضحك لي وداعبني....

تحدثنا وغَفوت تحت أشعة الشمس الدافئة والزهرة عَلى خدي كأنها زهرة سحرية طبعت على خدي من لونها الأحمر...

فكانت شقائق النعمان السحرية المُضرجة بحُمرة الحَياء المُغتصب من خدود عذراء حالمة..

رأيت السماء تَبتسم لها ولي كأننا طفلتان في حقل فسيح ملأناه عطراً يضوع بأريج الضحى المشرق في ذاك الصباح..

سارعت إلى أحضان أبي وهو مُمسك ببندقية الصيد العتيقة التي يعتز بها والأماني تتطاير بأن يصطاد شيئاً وهو ابن المدينة البعيد عن أجواء الريف، كانت ضحكاته وهو يحضنني كضحكة زهرة شقائق النعمان...

لامست بزهرتي بندقيته فوقعت أوراقها على الأرض، نظرت إليها وبكيت!..

لملمتُ أوراقها وكأنَّها أماني طفلة نثرتها ريح قوية، بكيتُ وجَفَّفت الشمس دموعي المتناثرة على خدي لتحملها كما قطرة الماء إلى غُيوم محمَّلة عبق روح زهرة شقائق النعمان وسمعت صَوت طلقة نارية قوية أرعبتني وزادت خَوفي خوفاً فلم أشعر بقدمي إلّا ويدا أبي تحملاني حيث بيت جدتي القديم وهو يقول: «لن تأتي معي إلى الصيد مرة ثانية يا طفلتي!.. قلبك رقيق كَزهرة شقائق النعمان، سيرافقني أخوك فهو صبي وقوي..».

وضعت كَفي على عيني خجلاً، نزلتُ عن يديه ورفضت العودة إلى بيت جدتي، رميتُ عنق زهرة شقائق النعمان وأمسكت بندقية أبي ومشيت مَعه نترقب العصافير كي يُكمل صيد ما يريد...

كأَنَّني ما زلت طفلة، وها أنا أقف في حقل شقائق النعمان يا أبي.

وتسألين عن يوم مولدي ؟! ...

كانت تسألني عن يوم مولدي، وكأنها تريد الاحتفال بتلك الذكرى التي قصّها عليّ أبي مراراً وتكراراً...

وأنا وسط مخاوفي!... كأنني أرى نفسي أولد من جديد، كنت أبكي أحياناً حين أسمع أغنية فريد الأطرش: عدت يا يوم مولدي، لم أخبرها بسهولة لأني شعرت أن هذا دور أبي، فهو دائماً كان يقصّ لي أحداثها...

كنتُ يا أبي خائفاً لأنني رجل فقير جداً ولا أملك من المال ما أستطيع أن أشتري به لأمك حتى الطعام، بكيت وأنا أنتظر مولدك وكنت أسير في طريق مقفر وأبكي ودموعي تتساقط كأمطار في فصل الصيف تحرق مكانها من شدة الحر وكأنني في شر وبلاء سيقع بي، ولم أستطع أن أمسح الهمّ والغمّ يومها كما مسحتُ دمعتي... كنت أجاهد نفسي بالتفكير كي أدبّر مبلغاً وأنا متّجه نحو دكاني عسى الله أن يرزقني...

اسمعي يا ابنتي!.. ربما تقولين أبي يبالغ لكن شعرتُ أن شيئاً كحجر تعثرت به، شعرتُ به قاسياً تحت قدمي نظرتُ فرأيت جزداناً صغيراً من جلد أسود، فتحته فوجدت فيه مئة ليرة.. ضحكتُ وبكيتُ.. ضحكتُ ثم بكيتُ، جلستُ على حجر أراقب الطريق عسى أن أجد أحداً يبحث عنه كي أعرف من صاحب هذا الجزدان.. لكن لم أكن أفكر أن أعطيه له... لكن كان في نيتي أن أعرف من هو فأعطيه المبلغ لاحقاً...

بدأ ضوء النهار يختفي شيئاً فشيئاً وربما بدأت أتذمر من الانتظار وربما كانت أمك قد ولدتك لكن الداية أم أحمد بالتأكيد لن تغادر إلّا حين أدفع لها ثلاث ليرات... دخلتُ عتبة البيت، فكانت رائحة السبيرتو تختلط مع رائحة اليانسون التي ملأت أنفي.

– قالت: أنظر إليها إنها قمر...

– ماذا!؟؟ بنت..

– نعم... بنت يا رؤوف..

– وتقولينها أيضاً أمامي ليتها ماتت قبل أن تولد.

– يا رجل هذه هدية من الله.

– لا أريدها، خذي هذه ثلاث ليرات ولا تريني وجهك...

وضعت عشر ليرات قرب أمك ولم أستطع النظر إلى وجهها

وتركتها دون أن أكلمها وغادرت إلى دكاني وأتساءل الآن... لماذا كان تذمري!؟.. لكن لم أر وجهك يا ضحوتي وتركتك ومشيت لأن أبي كان لا يحب أن يبشّره أحد بالأنثى، لكنني أتذكر، بكيتُ ولم أرجع إلى البيت تلك الليلة، نمتُ في الدكان كنت أصحو وأعمل ومن ثم أنام ولم أرجع إلى البيت، لكن يا ابنتي في يوم من الأيام جاءتني الداية أم أحمد وكأنها اقتحمت المكان اقتحاماً لم أحبّه ولم أنظر إلى وجهها حتى وكأنها بصمتها المُخيف وجلبابها الأسود أرادت أن أنظر إلى وجهها، وحركتها الثقيلة كانت توحي لي كأنها قنفذ سيقع عليّ – ماذا تريدين يا أم أحمد؟!!.

قالت: «كرهتها؟!. كرهت مجيئها، أنظر إلى وجهي رؤوف البنت مريضة ستموت... فيك تروح على البيت لا أظنها ستعيش.. !.».

شعرت شيئاً غريباً كالوهج أضاء أمام عينيّ، كان عمرك يومها خمسة عشر يوماً.. تبعثر الحزن والفرح وكأن قدميَّ لا تتحركان لأصل إلى البيت، شعرت بارتخاء في أطرافي وأنا أدخل البيت كي أراك، نظرت إلى وجهك فرأيتك تبكين ومن ثم غفوتِ وأنت تبتسمين، فتذكرت حين بكيتُ وضحكت وأنا أرى المئة ليرة بين يدي، فقلتُ لأمك: هاتها كي آخذها إلى الطبيب وحملتُك بين يدي وشعرت أنني سأفقدك وأني أطلب من الله أن يعطيني جهداً مكثفاً كي أصل بك إلى الطبيب...

- ضعها على طاولة الفحص.

ورأيته ينظر إليك ويضع سماعته يميناً وشمالاً..

- هي جيدة لا تخف، إنها تحتاج للتغذية، يبدو أن الأم تعاني سوء تغذية...

شعرت بقساوتي وكرم الله الكبير أن حماك وحمى أمك قال: «ما اسمها»؟. نظرت إليه وتجمدت لكن قلت: ضحى. لم أسمع ما يقوله جيداً سوى أنني حملتك وأخذت الورقة التي كتب فيها تعليمات لأمك وكأنك يا ابنتي ولدت يومها بين يدي وأنا أشعر بحرارة جسدك حين ضممتك إلى صدري وكنت خائفاً، بل مرعوباً من أفعالي...

هل تدركين الآن يا ابنتي لماذا لا أقصّ عليك يوم مولدي ولا أحب الاحتفال فيه؟!...

صمت الفراشات وبريق قلم اهتز...

وحده القلم الصامت بين أنامل تهتز، وحروف تتراكض كالفراش المبثوث هيبة ووقاراً، جعلني أفكر بصمت!.. وأتساءل مُربّ أم معلّم؟!.. وكل ما فيه ينساب بانسجام حديثاً وحركة وانفعالاً مدروساً لا يخلو من اتزان وحكمة تنطرح بهاء وسخاء من خلال كلماته التي تتأنّى وتترفّق بلطف وهي تخرج من بين شفاه لم تهدأ خلال عمر مثمر قطفت منه الثقافة جزءًا كبيراً، فأينعت سراجاً مستنيراً وفكراً فلسفياً جوهره العلم...

وحدها تلك اللمعة الشاردة في عينيه جعلتني أشعر بالذكريات المنطوية داخله، وذاك الغنى الروحي العميق الذي أورثه ذاك الهدوء والصبر وحسن الاستماع...

تركت القلم مغشيّاً عليه مُمدّداً على ورقتي وأمسكتُ برواية واحة الغروب لعلّي أهرب من التفكير في مسيرة حياة رجل لم أحدثه كثيراً لكنه طبع فيّ تساؤلاً زاد فضولي في معرفته أكثر وأنا

مؤمنة أننا في عصر عولمة سريع التطور، فكيف استطاع أن يكون معجماً متنقلاً وهو في جهاد نفس وفكر مملوء بالحداثة...

أمسكتُ القلم من جديد وكأني أمسكتُ كوناً لأكتب ما حدثني عنه بهدوئه وصمته بين نفس ونفس وتنهيدة عمر كاستراحات روح ظامئة إلى العلم...

ربما!... تكوَّن كشرنقة وأصبح فراشة ملونة وزرع حرفاً واحداً في عقل كل من مرَّ بين يديه ليجمع أبجديته على أفق لبنان والعالم، جلستُ أمامه وشعرت بهدوء غريب وكأني أمام نبع ماء يبلّلني بالندى، فثقل المعاني كالعشايا كالشمس!.. كالقمر المضيء في ذكرياته...

متناقضات كثيرة حملتني على أجنحة فراشته وهو يتكلّم عن الأم، عن المدرسة الأولى العفوية في حياة الطفل والتي تستمر حتى رحيله عن دنيا أبدع فيها عقلاً وثقافة وتعبيراً...

دمعة هي بسمته، وقطرة ماء هي حاضره ومستقبله، حبّه ترجمات لغات، وحزن هي كلمته، يتألق الحرف بين شفتيه حين يترجم حرفاً فرنسياً قاله، فأذنه تأبى الإيقاع الغربي رغم إتقانه لغات كونية فانية، فإشارات يديه تدل عنه بكل تفاصيل لغته بخاصة وكذلك فلسفته..

ربّما!... فلسفة رهبان، أو فلسفة روحية مختومة بالإيمان،

رغم أننا نتعدّد في الأديان إلّا أن الإيمان نقطة ماء تجعل كل شيء حياً من حولها...

لم يحدودب ظهره رغم السنين المتعاقبة على جسده إلّا أن القلم ترك رجفة على يده؛ فالحروف التي مرّت على يديه تركت أثراً في أنامل من ضوء كسفن فينيقية أبحرت...

بحر يفيض ملوحة فيطهّر كل فكر شارد رغماً عنه، ليصبح موجاً ذا تنهيدات من مدّ وجزر وهو يصمت حيناً ويتكلم حيناً. شعرتُ للحظات كأن الأرض تضيق وتتسع وأتـراب السنونو ترحل وتجيء والفصول تتعاقب وأنا جالسة أنصت لينبوع كلماته كالقوافي التي تستقر في قلوب العشاق..

نظر نظرة استغرقت ثواني، وكأنه ينظر إلى الأفق المملوء بالأسرار، وهو يحدّثني عن طفولته التي منها انطلق ليكتب في ضوابط اللغة ما استقر في قلبي قبل ذاكرتي، ولا أظن أني سأخطئ بعد ذلك بفعل مضارع أو فعل أمر، فعلامات التعجب في لغته علامات ناطقة تجعلك تدرك سرّ أي تساؤل تطرحه على نفسك وأنت تحدثه...

يـداه مرميتان فوق بعضهما على رجليه وعيناه تحت النظارتين تتأملان ببصيرة ذاك العالم الدفين في داخله، وكأن الحياة صندوق مقفل يفتحه ليخرج الجواهر التي تضيء معاني

شتى احتفظتُ فيها في جلسة منحني إياها القدر، وجعلتني أتأهب من جديد كي أحتفظ بما سمعته منه وجعلني أشعر وكأنني ما تعلمت شيئاً في حياتي وأنا التي قرأت آلاف الكتب الدينية والأدبية، لكن كتابه كتاب فريد أتمنى أن يكون كتابي....

لم يبق إلّا عشر دقائق....

يا ليت الزمن يتوقف هنا، فلا يسير بثوان تائهة ولا دقائق تهرول فينتهي الوقت. همس كالنسيم قائلاً: «ربما هؤلاء المعلمون يتحملون ذلّ جهلهم فيستمرون في ترويض العقول التي بين أيديهم». جملة جعلتني أستفيق من غفلة وتساؤل أمضيت فيهما سنين، لماذا لم نُتقن كمدارس إسلامية فن الإبداع؟.. في التعليم؟!...

هل لأننا حفظة.. فقط حفظة لا نتغلغل في عمق المعنى؟!.. فقد توارثنا «الببغائيات» بطريقة هزلية تقليدية بعيدة عن أي فن إبداعي لنفس وروح أبدعت يد الله في خلقها، ولأرواح تمتلك بوادر حسية دقيقة، فتلتقط ما تلتقط من خير وشر وحسن وقبيح....

هل بات قضيب الرمان دليل حديث «واضربوهم عليها وهم أبناء عشر»؟!... ربما!.. أكون جاهلة فيما فعلت إلّا أنني لا أذكر أني أمسكت قضيباً لإرهاب طفل، أو هويت بكفّ يدي على خدّ

طفل لأن خدي ما زال يشعر بألم لامس وجهي وأنا طفلة يلقنوني الحرف كما يلقنون الميت الشهادة ومن بعدها أعلنوا أنني غبية، فدفعوا بي إلى الرهبان لأنني لست من حفظة القرآن..

ذكريات مرّت رغماً عني وهو يحدثني مرات ومرات عن كوادر التعليم التي قادها ما جعلني أشعر بدمعة تدغدغ عيني التي تنظر إليه كمربّ وضع بذرة في روحي ستنمو وتكبر وتُزهر كما أزهرت الساعة التي التقيته فيها، فالعلم غذاء الروح وقنديل مُضاء بلا زيت يضيء أعمارنا، فترتوي أزهارنا بضوء يظلّلها لتكبر...

ربَّت بأناملة قبل أن ينتهي الوقت وكأنه ربَّت كتفي وأنا جالسة على مقعد دراسة مختلف، نجلس تلميذة وأستاذ على مقعد واحد، فاشتاقت نفسي إلى تلاميذي الصغار والحنين للعودة إليهم ولكن بفكر جديد وقلب سليم وعقل لا يقبل الترويض، فهل سأستطيع هذا بعدما باتت مدارسنا أشبه بدكاكين الوراقين قديماً؟!...

ربما تلاشى شعوري بالرهبة منه، لكنه جعلني أقبع في زاوية أفكاره أنتظر شرارة ضوء ما زال يتلمسها من قلب أمه وهو يراها كفراشة تطير روحاً وما زالت تحيا في روحه. أيهذي الوقت!... بعدما أغلقت أبواب المكاتب في المبنى ليته يوشوش الزمان ليضيء فجر الأماني لأركض في حقول البيان ليهزج كياني قصصاً

أكتبها لأبنائي ليسرجوا طريق العلم كما أسرجه هذا اللسان العربي الناطق بلغات كونية تنسج للغة الضاد رداء لتتوجها كملكة اللغات، فمخارج الحروف تستريح بين شفتيه تارة، وتتأرجح مع نسمات أنفاسه تارة أخرى، وقف شامخاً ونظر بعين الشمس فزادتها إشراقاً وأنا أتمايل بنشوة عطر فاض علماً ويقيناً أننا ما زلنا في الحياة أطفالاً...

لملمت خطواتي وسمعي يُعري كلماته، فتزداد المعاني سراً، أمسكت القلم وكأن بيني وبينه رحلة طويلة؛ فالحروف هنا زهور لم تفه عطرها حقاً، ورحلتي معه بدأت ولن تنتهي شعراً ونثراً حتى يختمني بختمه وربما لن أستطيع معه صبراً...

مع تحياتي وتقديري لأب روحي، وأستاذ جلست معه ساعة خلّدها الزمان بين وحي وحضور طافيين، فأضحى حباباً وهديلاً أينع معرفة جعلتني أكثر ثراء، إلى... أستاذي كمال خوري.

والماء حين يغضب....

في صوتها صمت يئنّ كأنه خرير مياه يضج غضباً من طفل شرّدته يد الأعداء. ضمّته إلى صدرها خوفاً من احتضار قلب متعب، من جريان في جسد أرض مهتزة بماء وعلى الجبال يسيل دمع سماء تنحني له ريح تتلاشى رويداً وهو ممسك بعلم بلاد مزّقته يد الأشرار...

نظر إليها في ذهول.. كأن الروح فارقت الجسد، وقد أصابها سيل عابر من وحول تراكمت حولها، وهي الماء الصافية المليئة بالحياة، وفي احتقان صوتها تغريد بلّل سمعه حتى اخترق فؤاده، وكلّ قطرة ماء اختنقت حزناً وارتجفت في كمَدٍ على تربة دنّستها خُطى جنود كالجراد..

ربّاه هل للمياه ريش يساعدها على الطيران؟.. أم أنني أحتضر في حضرة الضوء؟.. ما أجملها!.. هي كالطيور التي تئنّ، فتغرّد حين تتألم.. والتي تضرب خدود الماء حتى التوحّد..

أين المنابع الطاهرة في عيون قُدس حائرة حزينة؟ أم في حائط مبكى!.. بكى البُراق عنده على بحيرة أسيرة مشى عليها المسيح؟ أم في مسجد يفيض تلاوة حيناً وحيناً دم منه يسيل؟! أم في هيكل حالم في المدى تاركاً هبوب الريح تُعلن عن وجوده، يعانق الماء!.. يختفي حاملاً أثقالاً وحروبنا بغير بُكاء..

تساءل!.. لماذا تُراق الدماء كالماء؟!.. لماذا الوضوء بات بعد كل صلاة!؟.. لماذا العدو بات صديقاً، والصديق عدواً؟ لماذا صحراؤنا امتلأت نفطاً؟ ولماذا جناتهم أصبحت أعشاشاً للنسور؟..

لماذا مساجدنا أصبحت خاوية من الإيمان؟! والكنائس مراحاً لورود دون عطر؟ لماذا أحبار اليهود وعّاظ قلوب ميتة؟ هل جاء زمن يأجوج ومأجوج؟ هل الثورة بدأت في نفس أنثى واخترقت صدور العجائز، فحملتها صفحات الماء أشعاراً؟!..

مسحت بأصابعها السحرية الطرية جبهته الملتهبة والماء على امتداد كفّيها تعتصر منديلاً تضعه على جبينه كلما جفّ نثرت عليه الماء، وعلى زجاج النافذة رذاذ المطر ينفض عنها كوابيس خوفها من جنود الأعداء، لتعمّده بالماء كلما شعرت برعشات الحمى التي تجعله ينتفض كأنه يستقبل الموت بعد عناء وفي صراخ أحلامه.. أهازيج نصر وتراتيل حروف تودع الكلمات وثورة الحمى تغلي في عروقه كأنها شموع المصلّين..

أمسك غصن زيتون ولامَـس ورقة التين، قرأ: «**والتين والزيتون وطور سينين. وهذا البلد الأمين**». طارت حمامة السلام!.. فتح عينيه وهو ممسك بيد أمه ودموعها على خديها كبحيرة طبريا التي يراها كلما أغمض جفنيه، وكلما رأى قطرة ماء حبيسة في كوب من زجاج.. مسح دموعها!.. ضمّها.. شمّ عطرها بقوة.. أمسك شعرها.. تحسّس خدودها، كأنه افتقد أرضاً تاهت، وأختاً ماتت، وشجرة ليمون تركها في حصار، وشجرة خرنوب لحبيبة لم يُمسك خدّيها ولم يستطع رؤياها، وأرضاً بنى عليها مسكناً تركها مقيّدة ليفتديها بقلم يكتب وطناً وروحاً تركض في جسد محاصر في كهف يتقلّب فيه ذات اليمين وذات الشمال.. فهل تتخلّى الطيور عن أوطانها؟.. وهل يغضب الماء فيثور حاملاً كل شيء يراه؟.. ليرفعه إلى جبال شمّاء تخرّ وتتشقق خشية.. والرمل يرتشف كل يوم دم الشهداء!..

تقلَّب والقلب يحمل الحبّ كماء لا ينضب، ليلغي كوابيس الحمى التي أعلنت ثورتها على جسده الضعيف، وينطلق مع صهيل الحروف، ليُغني أمجاد وطن تركه محاصراً في كأس ومحرراً كالماء حين يغضب..

قالت له: «كنتَ تهذي بنيّ في غيبوبتك...».

أمـاه.. غيبوبتي!.. سلبتني صحوة العيش، تركتني في

غزة الأم في حضن القدس حبيبتي.. في بحيرة اغتسلتُ فيها، وعمّدتني بمائها الحرّ الحزين، في يد عدو خنقني على مرّ السنين، في مصر التي تشدو على صدر كل فرعون كفار أثيم.. في شام أبيّة تنتظر منارتها لمسة عيسى.. في بابل!.. في بغداد!.. في ثورة زهور الياسمين!.. في جبال الأردن الشامخة، في نبوءة أنا مؤمن بها، تمدني قوة أن خلفي امرأة جعلتني رجلاً أحبّ فيها فلسطين...

ذكرى خضراء...

ترنح خوفاً من هجر الأوراق، في زمن بات إيقاع الأحرف «الكيبوردية» موسيقى، تشبه موسيقى النّفس العصية التي تشتاق الاسترخاء عبر ضربات من رؤوس أصابع تخفف الكبت في نفوس تتألم..

رفعتُ نظري نحو السماء في لحظة غمرني الحنين إلى عزف قلم تركته يئن من اشتياقه ليسطّر بوحي وهمساتي، كأنه يرتفع بين السماء والأرض، بل ويتخطى الأكوان، كأن روحه طُويت بين الغيوم، فكيف يبتعد عني وأبتعد عنه وهو عصاي؟...

غدا أمامي كئيباً هائماً، كي يقف بين أناملي، كأن يدي امرأة عجوز تمشي على ثلاث، فرشتُ له ورقة بيضاء رقيقة حريرية شفّافة، فتأجج لونه الأسود أكثر.. فأكثر وكأنه عانق الورقة وهمس لها صبراً ستشتاقني مجدداً؛ فالإيقاع سكن سمعها، ورقصُ أناملها جعلها تكتب لغة لا أفهمها، لا أدري لم الأحرف باتت تمتطي خيلاً وتركض مع الريح، فما عاد توهجي يطيب لها؟..

أمسكته مجدداً!.. لأرسم أطياف زهر رغم شرودي بقصة أكتبها عن جدّي حين رفع جُرناً من حجر بيد واحدة قبل أن يسقط أرضاً مغمياً عليه حين رأى طيف حبيبته التي ماتت...

تذكرت ثوب جدتي الأخضر.. أرخيته ممدداً لأكمل رؤية ثوب جدتي في خيال يمتد بي عبر زمن مضى.. وتلك المشية التي تحبّها حين كانت تعلمني أن الأنثى تسير ببطء لتكون رزينة في خُطاها. أتذكر مرة قالت لي: «كنا نضع حجارة في ثوب البنت كي لا تمشي وتتراقص بخفة... ».

شعرتُ أن القلم رفع رأسه مجدداً ليغريني، فأمسكه وأرسم ثوباً لأنثى من حكايات جدتي، شعرت بصوته يُحدثني وكأنه على صحراء رملية صامتة أمام امرأة أسطورية ترفع قلماً كأنه عصاها التي تتكئ عليها، فتمشي عبر حضارة موشومة في أطياف عمر منقوش في ذاكرتها...

تململ قليلاً كأنه يرنو لمرافقتي مجدداً.. دحرجته.. شددتُ على رأسه قليلاً كي يصنع ثقباً منقوشاً على الورقة لكنني شعرت بألم وكأننا روح واحدة...

تذكّرت عمتي زاهية وهي تمسك عصاها وتشد عليها كأنها ستثقب الأرض كي تساعدها على الوقوف بثبات وشموخ... وجسد ممتلئ لترفع رأسها حين تستريح وتتأمل السماء الزرقاء

بلون عينيها.. قالت: هل أدركتِ؟.. ما معنى أدركتِ يا عمتي؟.. هل أصبحتِ صبيّة؟...

ضحكت.. وماذا تَرين يا عمتي هل أنا عجوز أمشي على ثلاث؟...

شعرت بوكز عصاها كأنها اخترقت كتفي بقوة... يا بنت ألا تدركين معنى كلامي يا شقية؟...

أمسكت يومها عصاها!.. ورقصت لها فكسرت إبريقاً زجاجياً سال منه الماء على سجادة تركية حمراء، لكن إبريق جدتي يرتدي ثوباً من خرز أزرق، وكأنها تريده رزيناً كأنثى في ثوبها حجارة...

يا الله هل يعبث قلمي هذه الليلة؟.. تذكرتُ تلك الهدية، إنها حجر من فلسطين وصرّة من قماش فيها تراب شممت فيه عطر وطن حزين...

تذكرتها حين قبضت على تراب الأرض بيدها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، تركت القلم غاضباً على ورقتي لأنني شعرت بظمأ يحرق حلقي.. كنا نسير معاً صباحاً بعد أن نوزع الحليب للجيران ومن ثم أنتظرها وهي آتية من المخيم لنمشي عبر حارة تختصر مسافة يجب أن نقطعها لنصل إلى المدرسة... كانت تحدثني عن حلمها في العودة إلى فلسطين وعن بقرتها التي

ستأخذها معها!.. عن حجارة تُلملمها!.. تغسلها!.. تنظّفها!.. تضعها في جيوب فستانها كي ترمي بها الجنود، فهي لا تخافهم بل تحتقرهم..

يا للحياة ومفارقتها..

عدت فأمسكت القلم بقسوة كأنني أمسك عصا ومنتهى أمامي تُحتضر بعد أن أصابها قنّاص برصاصة في رأسها وضحكتها ترسم أشعة شمس لصبح جديد، شعرتُ أن الورقة البيضاء أصبح لونها أرجوانياً كأنها علم يرفرف فوق صدور شهداء أفتقدهم...

ليت العدو يعلم أن سهامه أصبحت أقلاماً ورصاصه بات حجارة نغسلها بدمائنا، وحلمه أصبح وهماً، وشرقنا سيبقى عصاً قوية لا تُكسر، وأوراقنا أعلاماً ترفرف كحمائم سلام مشرقية..

شفاه ملطخة بالشّعر!..

تُفاجئنا المفارقات الحياتية التي نتعرض لها في يوميات لا تخلو من دهشة تُصيبنا بفكاهة مُحببة إلينا!.. فالرؤية تختلف في كل عين ترى خلق الله في الكون، فنتأمل الأشياء فينا كأنها كائن حيّ ينافسنا... جلستُ مذهولة أراقبه وأنا أمسك بقلم رصاص أحاول رسمه..

تساءلت لماذا هو مُتهلهل هكذا؟.. كيف يحتمل عدم الترتيب وكأنه يضمّه بين شفة عُليا وأنف بمحبة واعتزاز؟.. هل يستطيع الإنسان أن يحيا هكذا دون تناسق وتناغم وتبقى المودّة تدفئ جلودنا الباردة؟؟...

لأول مرّة أراه ببدلة رسمية ولون هو أقرب إلى الحياة، لكن الرجل الذي عاش في فوضى الأوراق لا يشعر برداء يغطي جسده؛ فالفكر قد انفصل عن الجسد وعاش في أعماق الثقافة التي حملته إلى الانعزال عن مرافئ الألق الزائف ليضم تاريخاً مثقلاً بالجهاد..

كانت رغبتي في إمساك المقص قوية كي أعيد ترتيبه وتشذيبه كما يشذّب الحدائقي أعشابه المؤذية. تساءلت كيف يستطيع الصبر عليه بوضعه الحالي، يتدلى كخيوط حريرية مُترهلة، ويهتز اهتزازاً ارتجاجياً، كأنه على مساحة صوتية يلتقطها!؟.. يا إلهي!.. جعلني أتمزق من الغيظ... ليتني أستطيع قصّه وترتيبه كما ينبغي... حالته مزرية استرسل في حديثه معي عن جمال المرأة وأناقتها، وأذهلني حين استفاض عن وصف جمال الأنوثة إنها الرغبة في حياة الرجل التي تجعله يرى المرأة الجميلة، فينسى نفسه على يديها لتكون هي عنوان جماله وانعكاساً روحياً ثلاثي الأبعاد بتقنية خَلْق مذهلة..

فجأة ضحكت لأنني شعرت كأنه سور الصين العظيم، أو كأنه طاووس ينفش ريشه وهو أشبه بعش للعصافير، شممت رائحة منزل جدّي القديم والشمس الذهبية التي ترسل أشعتها المُطرزة بالخيوط الضوئية التي تراها تداعب القمح الأخضر الذي يتمايل، ويد جدّي على فمه!.. يغطيه كي لا يراه أحد ويعرف أنه فقد شاربيه؛ فجدّتي انتزعته لأنه كان يشبه الغابات الكثيفة، شعيرات ملأتها غيظاً جعلتها تمسك شفرة الحلاقة وتمارس فيه الحصاد وحين استفاق عقدت الدهشة لسانه بينما جدّتي اختبأت خلف ظهر الحاجة نورا حماتها..

لكنه صمت ولم يتكلم معها طوال أشهر وكان هجره لها لا يُنسى، مما جعلها تحكي لي الحكاية كلما التقيتها حتى يوم وفاتها رحمها الله..

وقفتُ محتارة هل أرى شاربَيْ جدّي هنا؛ ما أجمل الخيال، حين يأخذنا إلى قصص سمعناها، فنشعر وكأن التاريخ يعيد نفسه في حالات متشابهة، لكن الحاجة نورا كانت تقول لجدّتي يا بهيجة تتسربلين شقاوة بينما النساء يشتعلن لتلمس شاربيه، فكل شعرة فيه كسنبلة قمح، والأهم من هذا وذاك أنه عنوان الرجولة في الرجل، فكيف جعَلْتِ شفتيه عاريتين لكل أنثى تريد أن تتغاوى؟ فشفتا الرجل لا يجب أن تظهرا عاريتين كامرأة لا تهتم لعفّتها...

كانت جدتي تعيد الحكاية وغصّة الذكريات تكاد تُبكيها، لكن الدمع يكابر كي لا يسقط أمامي، فأسمع دويّ سقوطه...

كم هي مختلفة تلك الأيام، فالشفتان الملطختان بالشَّعر كانت زينة الرجل، كلما كَبُر حجمهما كان شأن صاحبهما أكبر.. أما اليوم فبات الرجل يسابق المرأة إلى صالونات التجميل ليعيد شبابه المفقود كي يستطيع لفت أنظارهن...

الآن عرفت لماذا بعض النساء في القرى يضعن طرف غطاء الرأس على شفاههن لأنهن يشعرن بالحياء لإظهارها، فالصمت بلاغة كبرى وربما الشوارب الكبيرة تخفف من كثرة الكلام..

يا الله اختلجت الذكريات بي وكأن الحرف الذي أكتبه هنا يرتمي بنشوة على شاربيه، وتلاشت رغبتي في قصّه وترتيبه وأنا أشعر بالزهو نحو أستاذي كي لا أرى شفتيه عاريتين، وهو يكتم الحروف ويراقبها ويحيا معها كما كانت تحيا جدّتي مع جدّي...

أمين...

كانت تُدندن أغنية «العيون السود»، وهي تمشي شامخة كأنها ابنة الربيع المُزهر على خدّيها.. وسط عيون تنظر إليها فرحاً!.. استغراباً!.. غبطة!.. حسداً!.. وغيرة!.. جلست كضياء من نور وسط عتمة لا تخلو من همسات تفوح منها معانٍ جعلتها تبتسم وهي تنظر إليهن سعيدة بما سمعت.. رغم أن المتصابية تجلس على كرسي صغير قرب الباب..

قالت: هذه ابنة بُشرى التي عشقت على زوجها!..

كانت كعطر الليل يفوح عطرها جمالاً كلّما نظرت إلى أنوثتها التي تبدو كفرس جموح، وهي تنقر بأصابعها على ركبتها كأنها تعزف على جسدها، كهسيس مطر يداعب حجارة صمّاء، وما إن اقتربت منها السكرتيرة حتى تمتمت لها: «فاتنة أنت اليوم سيدتي بلونك البني، فزاد بهاؤها حين وقفت والعيون تنظر إليها تلاحق أنفاسها وهي تمد يدها.. أشكرك نادين...».

انتظرت ساعة.. أحاديث النسوة كانت تشدّ سمعها وهي مُمسكة بمجلة تنظر إلى صورها وأطراف العين تختلس النظر لتراه لو مرّ فجأة!.. عبثاً.. لم يمر كعادته..

يا إلهي أين هو؟ متى أدخل إليه؟ أشتاقه؟.. طال انتظاري؟.. يجب أن أمسك بقلبي.. جريان الدم في عروقي سيفضحني والحب بي كنيران معبد مُقدس.. يا إلهي أشم عطره هل يقترب مني؟ كيف سأنظر لأتأكد؟ ستفضحني عيناي؟.. لا.. لا لن أنظر كأنني أحيا من جديد كأن الهواء المُنعش يخترق أوردتي، يا إلهي ساعدني!.. أين أمين؟..

بدا الجو أكثر سحراً حين انطلقت نحو باب الغرفة المُغلقة ويدها تمتد لتعلن له دخولها إليه، وبدت أكثر فرحاً حين سمعته يقول: تفضلي ندى... داهمتها رائحة عطره، فارتعشت روحها غبطة، وكأنها ضمته إلى صدرها اشتياقاً في خيالها ولم تدع الصمت يكتمل وهو يراجع ملفها الصحي بين يديه..

دائماً أحتاج مهدّئاً يرفضون بيعه في الصيدلية دون وصفة طبية، لهذا أحتاج إلى وصفة منك لأشتري المنوّم، وصمتت كأنها شعرت بهزيمة مشاعرها الفوارة المكبوتة في جسد يتلوى كعشب البراري المتشوق لمنجل يحصده كي يستلقي على تربة دافئة، بل ملتهبة في صيف مليء بالقيظ..

قولي ما تشائين.. أسمعك إغسلي همومك كي أسافر بها، فلا تحتاجين منوماً أو أي دواء آخر لعل أوراقي تلتهمها، فلا تزيدك قلقاً بعد اليوم..

نظرت إلى أصابعها وهي تلعب بأظفارها القاسية، وكأنها تريد غرسها في جسده وهي تفكر، هل تخبره ببعض أسرارها أم تنفلت من كبت سيقتلها، وهي تتغزل به في نومها وقيامها وتراه كل ليلة في أحلامها، هي التي ترحل معه في رحلات خيالية نحو بحر لم تلمس قدماها رمله يوماً.. هل يعرف ما أفكر به؟.. يا إلهي..

أتعرفين.. أنت سيدة رائعة وتحتاجين إلى الهدوء.. اعتبريني صديقاً لك لا تعتبريني طبيباً.. واجعلي البوح مركباً سافري به نحو من تريدين، سترتاحين لأنني لم أجد في الفحوصات أي أمر سلبي صحياً..

تاهت في فيض مشاعرها نحوه وعلى محياها ارتسمت صورة زوجها وهو يتغزّل برفيقة عمره، تساءلت ماذا أفعل؟.. هل أنتقم من زوجي لأعشق الطبيب؟.. أم أنني عشقته فعلاً؟.. تسللت إلى مخيلتها صورة زوجها وهو يتسلل من سريره تاركاً بعض شعيرات بيضاء من رأسه على وسادتها، وهي تلمع أمامها أزرار قميصه الرمادي..

اسمعيني.. هذا رقم تليفوني ويمكنك أن تتصلي بي متى شئت لكن سأمنعك من الدواء المنوم..

ارتسمت على وجهها تعابير كآبة.. جعلته يشعر بأوصال قلبه تهتز وهو يراها تدير ظهرها لتفتح الباب وتغلقه خلفها كأنها فتحت قلبه ولم تغلقه، فكيف سيداوي جرحه من تلك الزنبقة الحالمة المتأججة؟.. لم يستطع البقاء في عيادته خرج هارباً منها إليها...

لم ينم تلك الليلة وهو يراها تتمايل أمامه، وعيناها الحائرتان تلتهمان نظراته، فهل أنا مخطئ؟.. أم أنها تعشقني فعلاً؟.. ترى ما الذي يؤرقها؟.. يا لجمالها كم أسرّني؟!..

ثمة خوف في روحها وهي تتقلب في سريرها وفي حنجرتها تخفي تنهيدات قلق أتعبها واشتياق تكبته حتى يكاد يقتلها أرقاً.. امتدت يدها إلى صدره مسحته كمن يمسح تعب سنين عن جبينه.. أمسك بيدها وقبّلها.. أنت من عشقتها ومن وضعتها في قلبي ولا أحد سواك في روحي جيهان...

شعرت بالذعر.. أفلتت يدها من يده، هزّت زوجها بعنف.. هذه أنا ندى فكيف تقول جيهان؟.. ارتدى قميصه بسرعة وخرج من الباب تاركاً دموعها على خدّيها تحرق صدرها وهي ترتجف من حزن.. أين المنوم اللعين؟.. أمسكت الخلوي وضغطت على أرقامه بقسوة!.. صرخت تاركة صوتها يفعل ما يشاء.. أمين...

عصاه....

بدا على ثغرها كبتُ غضب هادئ وهو يصرخ في وجهها الذي طغى عليه الحزن، وهي تشعر بتعب أنهك جسدها المُثقل بتراب أرض تحبُّ رائحته، لأنه يجعلها تشعر برجولة مخفية فيها، وهي تمسك بقبضة حبوب الهندباء لترشها في الأرض ومن ثم تراها بعد أيام براعم ذات ألوان فتملأها فرحاً وبهجة...

إن شيئاً قوياً جعلها تصمد أمام جبروته.. أطفالها!.. من رأتهم كحبات تزرعها وتراها تكبر تنسيها ما تكابد من تعب في شيخوختها التي تُمضيها في هذه الأرض التي تزرعها وتقدّم لها ما لم يقدمه ذاك الذي تزوجته من سنين...

جال التساؤل في نفسها!.. وهي في عمر السبعين، إلى متى سأصبر عليه؟.. مزاجه السيئ يزداد يوماً بعد يوم. أمسكت سيجارة بين أناملها وشفتاها تأكلان بعضهما بعضاً من شدة توتر تخفيه، فزوجة ابنها تكاد تبكي من صراخه وهي وما زالت عروساً في ثوب الحياة الجديد...

صبرها لم يكن غباء!.. إنما هو طبع نفسها الأصيلة التي طُبعت على احترام الرجل، لكن في داخلها غضباً يكاد يتفجر في ثورة عارمة وهي التي جعلتها الحياة كالأرض قوية بقوتها، ومعطاءة بعطائها، وضعيفة بضعفها أمام زرع جميل تحضنه... كانت تحضر طعام الغداء وفي يدها بعض حبات البطاطا التي اقتلعتها من الأرض تقشرها وهو أمامها يهتز كغصن شجرة ميتة يلوح من عاصفة تلعب به...

– أيتها الغبية.. أنا جائع... دائماً يتأخر الطعام، إلى متى سأصبر؟.. كأنه في صراع بينه وبين الذات التي فشل في تحقيقها كرجل قوام عليه مسؤولية يجب أن يقوم بها. لم تحرك شفتيها، بل جعلت الصمت يعبّر عن غضبها... وضعت الطعام أمامه بعد ساعة من ثورة صراخه التي لم تنته وهي مُتعبة... جلست على طرف السرير وهو يأكل أمامها..

أين الملح أيتها العجوز؟ دائماً تنسين الملح، والسلطة ينقصها حامض... فاشلة أنت حمقاء لا تعرفين تحضير طعام يُسعد قلب الرجل...

ضحكت!.. كأنه وضع أصابعه على خاصرتها يداعب ضحكاتها.. ثورة ضحكها جعلته يتوقف عن تناول الطعام وفي يده فجلة صغيرة رماها بها بقوة، فتوقفت فجأة!.. وقالت: «أزعجتك ضحكاتي أيها العجوز...؟».

نظر إليها مستغرباً وكأنها ارتدت حلّة جديدة من تعابير وجه تختلط فيه الأحـزان، رمى صحون الأكل في وجهها غير مكترث بما وقع على الأرض.. ركضت زوجة ابنها نحوها وهو يرفع عصاه ليضربها، فأصاب زوجة ابنه الحامل. صرخت صوتاً وسقطت مغمياً عليها..

نظرت إليه «نايفة» نظرة ضربته فيها قبل أن تمسك العصا وتبدأ بتكسير كل شيء في الغرفة... التلفزيون، الزجاج، الكراسي...، وهو قد تجمّد مكانه أراد أن يمسك يدها ليجعلها تتوقف لكنها رمته أرضاً ورفعت العصا لتضربه كما كان يضربها طوال سنوات طويلة، فجأة!.. رمتها قربه وقالت له: «أنت تحتاج هذه العصا رفيقة لك ولا تحتاج امرأة أيها الحجر، لو كنت في أرضي لرميتك بعيداً فلا حاجة لحجر في أرض مثمرة...».

حملت زوجة ابنها وهي تنزف بين يديها وذهبت بها إلى أقرب مستوصف في المنطقة، والحزن عاد ليرسم علامة صمت على وجهها المليء بالخطوط الحياتية التي عاشتها مع عصاه..

هل تعرفين قوة الاحتواء؟..

لم أرَ امرأة هستيرية متوزعة على كُلِّها، كامرأة رأيتها في شفتين قرمزيتين متراصّتين!... ترتجف أحياناً عند اشتداد إثارتها الألقة، المتوهجة من ألوان فرشاتها التي تمتلئ من أسرار أنوثتها الباردة. فكيف تضع الأنثى الأسس الاستراتيجية لتشد انتباه رجل لم يقع في حقول ألوانها؟..

للوهلة الأولى جذبتني ابتسامتها التي تراها على خدّيها الشاحبين، وكأنها تصنع كتلة يصعب عليك لمسها أو تقبيلها!.. كأنها توقظ فيك شهية التساؤل وتضعك في حيرة كدمية من صنع يد محترفة، فكلامها عبارة عن تكرار دائم..

كانت ذاكرتي تأخذني إلى حكايات جدتي، عن نسوة يصارعن أنفسهن مصارعة الخبّاز لعجينة عصية بين يديه، ويتهافتن على إبراز وجودهن بتكلّف وابتذال يثير اشمئزاز الأنفس المطمئنة..

لم أستطع بناء رؤية جلية في نفسي وهي تجيد إظهار جمال ربما!.. هو جمال مُعاكس بمعنى جمال قبح لا نراه ولكن نلمسه في خيبة وعودة إلى دائرة ضوء تجعلنا نفقد قوة البصر للحظات، كالناظر إلى الشمس ويخسأ البصر دائماً في قوة ضوء...

في شعرها فن صناعة قوية ليد بشرية امتدت إليها، فاستغنت عن فطرة صنعها الله بيده وشتّان بين صنع الله وصنع البشر، فالحاجبان ليسا هما؛ بل إنهما رسم يد مرتجفة قاسية في خط لا انحناء فيه، كأنها أرادت أن تكون لوحة موناليزا جامدة ناطقة، والله هو الخالق البارع في التصوير والعطاء وهو الكريم المنّان..

كنت أراقبها بحذر وفي شراييني حرقة دم تجمّد من امرأة أخفت أنوثتها بوجه من صنع اختصاصية تجميل، فاختفى الوجه الملائكي، لتستبدله بقناع صنعته خصيصاً كي تمحو برودها الجنسي لتكون هيستيرية بلحظات تفقد فيها السيطرة على نفسها...

سافرتُ مراراً في وهجها المسيطر على من حولها من العناد الذي تتميز به، فجعلتني أتساءل عن قوة الاحتواء في حواء!... هل هذا سر حواء الأكبر؟... وهي بفنّها وكيدها أحياناً تسيطر على رجل فيه من قوة الطين ما يجعله صلباً كالأرض، ومع ذلك يصبح مطواعاً كعجينة فخارية بين أناملها، فإما أن تجعله روحاً لا

تجف!.. فتحيا معه بطيبة ومودة خلاقة، وإما تجعله قاسياً غير قادر على الانسياب على أسطر زمانها المتعب...

فما من أشرعة تموت، لكنها تتكسر وتتقاذفها الأمواج ليمجّها البحر قبل أن تفنى على شواطئه لأنه يرفض ابتلاعها لهشاشتها.

فمتى تفقد المرأة قوة الاحتواء؟.. حين تكون أقل وعياً من كل كائن بشري؟.. حين تتخطى حدود واقعها لتصبح امرأة خارقة في احتواء ذاتها؟.. ربما ما تقدّمه المرأة في احتوائها من ربط وتماسك لوعيها، هو أشبه بنافذة صغيرة تجعلنا نرى جمال المرأة الأنثوي في طبيعته الأخاذة...

يقول توماس مان: «غالباً ما تظهر المؤسسات البشرية بطلاء خارجي لامع، حتى إذا تفحّصتها من الداخل وجدت أن الفساد قد استشرى فيها».

كنتُ أنظر إليها والحيرة تدفعني لاستكشاف ما بداخل عينيها، فألوانها تجذبك مرغماً وكأنها مصنوعة من مادة زجاجية باردة جافة، لكن لها شفافية تبرزها من خلال لون أصفر تحبه، يرافقها كلون غروب شاحب قد لا يستفيق فجره أبداً، أو كأنها أكسيد معادن ممزوجة بمواد زجاجية، وهذا ما يجعلها ثابتة قوية تقاوم كل أشعة ما فوق البنفسجية صادرة من امرأة تملأها الحياة

إشراقاً لتجعلها تشعر ببرودتها، فتصحو من غفلتها والغيرة تنهش قلبها من عمر يرسم خطوطه على جسد... لم يكن قطعة زجاجية نرسم عليها بمواد تقاوم كل أشعة تحت البنفسجية، فتشعر أنها امرأة فقدت فن الاحتواء...

العالم قبلة...

عندما يسطع نور الشمس في العيون!.. تمتلئ الحياة إشراقاً، وتصبح الأيدي كالمراوح تتحرك في اتجاهين لأنها توازن الجسد مع حركة الروح في وحدة تامة مع العقل والقلب، كأنها تعزف إيقاع يوم جميل في كتاب موسيقي مطوي بين شفاه الزمن...

ما زال قلبي ينبض بفصل شتاء ينفض الغبار عن الأشجار ويغسلها، ويزين الطرقات بحبيبات مطر أحبها، وكأنها تتغزل بالطبيعة وتقبّل يديها لتزهر في الربيع، وما زالت طرقات طرابلس تعيدني إلى طفولتي حين أسير قرب المنشية أو ترتفع عيناي لأرى ساعة التل كفراشة تتعلق في المدى، تنشد الدفء في سماء مفتوحة من الجهات الأربع.. ترى أين القمر في ساعة الضحى؟.. وأين العتمة تكون؟.. أين الطيور التي تغادر كل ظل تمسّكت به وهي تطوي أجنحتها المتعبة لتعلن الرحيل؟..

في ضجيج المارة بعض الفرح، أو ربما!.. أنا هي الفرحة

في يوم جعلني أشعر أني غير مرئية أسير في شارع يرتبط بطرابلس ارتباط قصر نوفل بحكايا المدينة في كتب التاريخ، وهو يضج بكل أنواع البشر.. والغمام يرسم وجوهاً أراها تراقبني، كأنها في لجّة أمواج الحياة التي أخوضها تمدّ جسوراً لتحيا الجمال معي..

ارتفع صوت الباعة أكثر، نفضت يديها بسرعة، وكأنها نبّهتني أني أسير على الأرض، وهي تسير أمامي مرتدية قميص نوم أزرق وغطاء رأس أسود، تتمايل كأنها سنبلة قمح بين قش لا يرحم.. أمسك يدها رجل عجوز، فتأملتُ لحظة يعيشها الإنسان في عمر هرم، كأنه طفل يحتاج سنين جديدة في حياة اختبرها، وربما جعلته يشعر بثوانيه الأخيرة قبل أن يغادرها، أو هو الفقر الحنون في دمعات حزينة تجعل الأرواح تتآلف لأنها تحيا على فتات القدر..

ضحكت... وكأنه ينحني للملكة أليزابيت، شعرت بالخجل، فالرجال من حوله ينظرون.. أحسست كأنها طفلة تسرح شعرها في حديقة من زهور، فابتسامتها تسرّبت إلى قلبي. قبلة وفاء ربما!.. أو قبلة مُجبر أخاك لا بطل؛ فالظاهر قد يكون عكس ما هو باطن.. دغدغت مشاعري لحظات حنين لأمواج بحر هادئة، فهل تنتعش اليد من قبلة لا تدوم إلّا في القلب، وهل تلامس الشفاه الأيدي لتتحسّس صدق عاطفة الآخر؟..

لم تلفت انتباهي يوماً قبلة على اليد، ولم أؤمن بها.. لأنها كانت مصدر تعب ونحن أطفال، هذا جدّك.. هذا عمّك.. هذه عمّتك.. هذه جدّتك... حتى أن الشفاه كانت تتورّم، وأحياناً نهرب إلى الأراجيح في العيد كي لا تُمدّ الأيادي لتقبّلها شفاهنا..

عدتُ إلى المخزون في ذاكرتي، تذكرت قبلات تاريخية لرؤساء وملكات الجمال.. وقبلة برلسكوني ليد القذافي، والقبلة الفرنسية التي كانت مخصصة فقط للملك لويس الرابع عشر...

كان يستطيع تقبيل النساء لمنحهن بركته، فهل يمنح هذا العجوز بركته لحبيبته؟.. أم أنه يدعو عليها بالقطع؟..

ما سر قبلة اليد يا ترى؟ ولماذا هي تاريخياً مهمة؟.. تذكرت قبلة أبي على ناصيتي أحسست بالدفء، وبصدق القبلة على الناصية، وقبلة منحتُها لعمّتي قبل أن ترحل عن دنياها.

يا الله!.. ما سرّ القبلة الأولى في الحياة؟.. وهل تصدق الأسطورة أن نحلة قد غطّت على شفتَيْ حواء فتعلّم منها آدم؟.. تقول هيللين رولانـد: «بالنسبة إلى المرأة هي نهاية البداية، وبالنسبة إلى الرجل هي بداية النهاية..».

ضحكت وفي مخيّلتي بـدأت أروي الحكاية، كتاريخ لقبلة في عام عجّ بالأحداث، قبلة رجل عجوز على يد امرأة هي حبيبته ربما!.. قبلة تاريخية في ساحة التل الأثرية والتي تضج

بالمارّة.. شعرت بلسعة أحرقت يدي وصراخ رجل مدّ رأسه من النافذة يصرخ بي: «إضعفي شوي» كدتُ أصرخ من وجع لكنني لم أستطع التوقف عن الضحك، وكأنها نوبة أصابتني، فشعره الأشعث وأزيز سيارته ذكرني بصوت القذائف في حارة الشهداء، فأبوابها تكاد تقع وهي تهتز كامرأة عجوز هرمة جعلتني أتأمله بذهول لا يخلو من ضحكة ارتسمت...

توقف حين رآني أضحك وعيناه الحائرتان تتساءلان ما بي؟ قلت له: «كل هذا الحجم لم تره؟ فكيف تقول يجب أن أكون نحيلة؟».. انكفأ داخل سيارته التي تصدر أصواتاً، كأنها برميل يجره حمار أو كأنها باب الياخور في القرية الذي يعيدني إلى الزمن العثماني كما قبلة اليد.

رحل ولم يسألني عن يدي التي بدأت تتورّم!.. مسحتها قليلاً، نظرت إليها واللون الأحمر فيها بدأ يتمدّد كأنه الشفق في سماء مذهولة.. رفعتها نحو فمي ولامستها بشفاهي لأتحسس قبلة لا معنى لها إلّا أنها من مكتسبات الزمن الذي يعيدنا إلى التسلّط والتوارث، ونسينا أن نرفع اليد تحية مباركة تُبعدنا عن أي ذلّ وتهدينا إلى السلام.. نظرت إلى يدي قلت لها: «لا تحزني السلام عليك وهذه قبلة من شفاه وردة».. وكل عام وأنت حبيبتي...

ضجيج... رئيس... قهوة...

الصالون واسع والأضواء قوية، وصوته مرتفع جداً حتى سمعي بدأ يتألم من لغة لم أفهم منها شيئاً. حاولت لكنني في كل مرة كنت أشعر بالخيبة لأنني فشلت في فهم حديثه الطويل!.. خرج فجأة وفي يده صينية عليها فناجين مختلفة، نظرت إلى عينيه كي أكتشف سرّاً ما!... لكنه استدار مسرعاً بعد أن تناولت فنجان الشاي ودخل المطبخ مجدداً وبدأ الصوت يرتفع...

شعرت بالفضول لمعرفة سرّ هذا الضجيج كلّما دخل، حاولت أن أتخيّل ماذا يفعل؟ هل يقود أوركسترا؟.. أم يحاول عزف موسيقى ما؟.. هو هادئ جداً، وتبيّن ملامحه أنه صبور وصامت.

حاولت الاسترخاء بعد أن تناولت كوب الشاي، ورائحة القهوة في الصالون تبعث الشهية لشرب فنجان بطعم الهيل.. عاد وخرج من المطبخ والصينية بين يديه عليها فناجين القهوة، تحرّك

بسرعة حين نظر إليّ ورآني أنظر إليه، وكأنه شعر بالرعب من نظراتي...

قال: هل تحتاجين فنجان قهوة سيدتي؟.

قلت: لا... أريد رؤيتك دائماً وأنت تخرج وتدخل إلى المطبخ، والأصوات التي ترتفع منه تزعجني... عبس في وجهي فأضحكني...

هل تنتظرين أحداً سيدتي؟!.. تأخر ولم يأت بعد؟.

نبرة صوته تدل كأنه تضجّر من وجودي، لا يعرف من أكون، فأنا صاحبة وجه جديد بالنسبة إليه..

مجدداً برم ظهره ودخل المطبخ، لكن هذه المرة ارتفع الصوت أكثر.. حاولت فهم اللغة هذه... لم أستطع!.. شعرت بالغيظ أكثر، كدت أقف لأدخل المطبخ وأعرف ما هذا؟ ما الذي يجري؟.. خرج من المطبخ حاملاً المنشفة بين يديه، وهو ضاحك سعيد.. جلس على الكنبة أمامي وكأنه يخفي شيئاً في فمه؟..

ما اسمك؟..

عبدالرحمن سيدتي؟..

ماذا تعمل؟..

رئيس وزراء يعني!.. كما ترين والله...

أدهشني كلامه واستفزني..

- ألا ترين أنني أقوم بواجب الضيافة؟..

أحسست كأنه أراد أن يقول لي هل أنت غبية؟..

وقف بسرعة كي يرفع صوت التلفزيون حين ظهر الرئيس على التلفاز.. وبقي واقفاً، لم يجلس والرئيس في خطابه الطويل وهو ينظر إليه بفرح كأنه أبوه أو أخوه أو واحد من أفراد أسرته...

قلت: إجلس لماذا تقف وتنظر إليه؟ إجلس وتابع..

عقد حاجبيه بقوة وأكمل دون أن يهتم لكلامي حتى أنهى الرئيس خطابه ثم جلس..

لم أشعر بالغضب يوماً، كما أشعر الآن..

ممكن أعرف!.. لماذا وقفت وأنت تسمع الرئيس؟..

بدك أقعد والرئيس أمامي؟..

نعم إجلس، وماذا في هذا؟..

عيب، أجلس أمام فخامته..

ضحكت كثيراً، لم أستطع منع نفسي من الضحك..

أمسك سجادة الصلاة ونفضها خلف طاولة السكرتير ثم وقف وبدأ الصلاة، وكأني غير موجودة، الصمت زاد المكان هيبة، مسح كتفيه بيديه، حمل سجادة الصلاة ودخل المطبخ.. ارتفع صوت الضجيج أكثر فأكثر هذه المرة...

لم أمنع سمعي من الانتباه، إنه ارتطام أشياء ببعض بعضها بقوة، هل يكسر كل شيء في المطبخ؟..

لم أرفع بصري عن الباب لعلّه يخرج.. لكن وقفت بسرعة واتجهت نحو المطبخ لأعرف ماذا يفعل؟..

غسيل فناجين، ضم ملاعق، ورذاذ الماء يتناثر بقوة، تبللت الأرض قليلاً، لا شيء في المطبخ.. نظرت إليه والغضب بدأ بي.. ماذا تفعل؟ ومن أين كل هذه الأصوات؟ أنت فقط تغسل فناجين؟...

انتزع الفنجان من يدي وبدأ يغسله..

نعم أتكلم مع فناجيني، أحب أصوات أشيائي، هل أزعجك هذا؟..

تجمدت.. لم يخطر ببالي أن تكون هذه الأصوات ثرثرة الفناجين مع بعضها البعض، فعلاً هي حديث حميم بينه وبينها، وكأنني فهمت ما كان يدور بينهم من حديث هو استنكار لأشياء تدور هنا، يستنكرها، فتستنكرها معه الفناجين...

قلت له: رئيس محظوظ بموظف مثلك هنا..

قال: هل تضحكين مني سيدتي؟ هل تريدين أن يطردوني؟.

لا لا أبداً، والله أقول الصدق، هنيئاً للرئيس بأمثالك، لو

كان من حوله بصدق نيّاتك لعمّ الخير علينا أكثر ولم تأت الثورة العربية محمّلة بالدماء...

شعرت بالخجل من نفسي وقدّمت له اعتذاري..

وما زلت أشتاق لفنجان الشاي من يديه...

ثنائيات متكررة...

هل ستصدّق حبي لها وتفرح به حين أجالسها فجراً على أرجوحتي؟.. إنها تهتز كما القلم في أنامل كالأغصان المزهرة؟.. هل ملكتُ العالم اليوم والشوق يلفني لأمارس هوايتي، كطائر يمدّ جناحيه ويسافر عبر عالم من صنع فكرة وورقة؟.. ما هذا الحبّ كله الذي يضجّ بي؟.. هل ستفرح بي؟.. وتمتد أمامي بلون أبيض يجعلني أراها كعروس مغناج بثوب زفاف يُغريني؟.. هل ستشغلني بها دائماً، وتأتي بالوحي لأمسك القلم وأكتب ثم أكتب؟..

كنت حين أبحث عنها أشعر بتناقضات في أفكاري، فالسمراء قد تكون خشنة الملمس ويصعب على الأنامل أن تشعر برقّتها، والرقيقة أخاف أن تتمزق بين يدي، لكن البيضاء الشفافة هادئة صافية تجعلني أشعر بجمال نفسي فيها، كأنها غيمة تحملني وتحط بي على شاطئ يعشّش في مخيّلتي...

عشت عمراً أفتش عنها لأضعها بين يدي في لحظة أعيش فيها معها، كمعشوقة تأخذ مني عمري كله لأترك بصمات أفكاري عليها، هكذا أحتضنها... أنظر إليها... أستمتع بجمالها... أستعيد كل ذكرى معها؛ فالروح تندمج مع الجمال حين ينبسط أمام العيون، والغضب المكبوت بين الشفاه كصمت الوحي حين يترجم كلماتي فأنثرها عليها.. أتذكر أحياناً أنني كنت أمسكها بقبضة يد وأرميها... من ثم أضع رأسي على وسادتي وأغفو لأستيقظ صباحاً نادماً على فعلتي!.. ألملمها!.. أحاول إرضاءها!.. أمدّها!.. ألمسها!.. أحاول أن تعود كما كانت لأكمل فكرة قد بدأت على يديها..

هكذا هي كومضة الفجر حين تمتلئ بأحرفي، وهي تستمتع بما أكتبه عليها، فتصبح أجمل حين أرسم مشاعري وأضع على بساطها أفكاري... نتحاور!.. نفكر معاً!.. نضع الفواصل!.. أداعبها!.. أغازلها!.. تجعلني في حيرة أحياناً، فأرى الكون فيها ممتداً.. أغضب حين لا تدرك أن يدي ترتعش وهي تلامسها، فهل انتهى زمانها ويجب أن أفكر بالتغيير والحياة مع سواها؟..

هل بدأت ثورة النفوس في كل شيء حولنا؟.. أم هي تلك المسماة تقنية العالم الحديث والتي يصعب فهمها سريعاً...

أحبّها.. نعم أحبّها!... تأخذني إلى سمائها الصافية الناصعة

البياض كأني أسبح في فراغ ممتع، فأصنع من كلماتي سفناً ونحن معاً في تناغم قبل أن أطويها وأحتفظ بذكرياتنا معاً في صندوقي الخاص..

لماذا أمسك القلم؟!.. أين الورقة؟.. أين تلك المسماة صفحة إلكترونية؟.. لماذا أحبّها؟.. ماذا سأكتب اليوم؟...

أصبحت يدي في زمن السرعة بطيئة جداً... لِمَ لا أشعر بسرعة الحركة، وأنا أخط الحرف عليها؟.. كأنها أصبحت من زمن قديم لا يربطني بها سوى بضعة حروف ما زالت مرسومة عليها!... كأن القلم في حركة مغناطيسية يلتصق بها، فأجره جراً.. سأتركها في ملف خاص ألجأ إليه والكهرباء مقطوعة، أو حين تكون «الكيبورد» معطّلة لتكون رفيقتي في خلوتي الخاصة فقط...

بين ورقة بيضاء ولوحة حروف «كيبوردية» فرق كبير... تلك تجعلني أصطحبها في سهرة راقصة مع قلم يبدع في رسم أحرف تعبّر بقوة عن انسجام وتناغم معاً.. وبين لوحة «كيبوردية» تعزف أصوات الحروف لتصبح كل كلمة كأنها أغنية جميلة ذات نغمة لها عنوان واحد تكتبه الأنامل على صفحة بيضاء، لكن في تنقّل بصري وكأنك في إخراج «فيديو كليب» سريع الفكرة والصورة، فأي كتّاب نحن؟.. نعيش في زمانين: زمن الورقة والقلم وزمن «الكيبورد» والأحرف السريعة...

فأيّ منها تختار ستحزن لأننا أصبحنا نعيش في ثنائية متكررة

مُتعبة!.. نتخبّط بين الهنا والهناك، بين الأنا والنحن، بين الأبيض والأسود، بين قديم وجديد، فلا نجد المبرر لنترك ورقة بيضاء جميلة!.. أو لنترك «كيبورد» تعزف لنا نغمات حروف تجعلني أدرك ما أريـده من نفسي ومنها. لكنها أحياناً تتعب أصابعي وعند أي خطأ تختفي الأحرف من أمامي، فتجبرني على إعادة أفكاري فهل أقول لها أحبّك؟.. وأختار الوسيلة الجديدة ذات التقنية الحديثة؟.. أم أمسك ورقتي القديمة لأشعر بوجودي أكثر معها؟... من أختار ورقة أم «كيبورد»؟...

وأنت ماذا تختار؟..

طواف في سدة الوطن...

فتحتُ نوافذ الحياة الواسعة لأستقبل نور الشمس الخافت في حياتي، ولأغادر كل مكان سكنته والعينان حائرتان من زمن مضى وزمن أتى، وكأنه نقلني من زمن الجدب إلى زمن خصب ومن زمن الحرب إلى زمن السلام..

مدّ يده مرحّباً بجرأة لم أعهدها من رجل بهذه القوة والثبات... تأمّلتُ شعره الأبيض وكأني في جبال البيرينيه وجبال الألب التي عبرها المحارب هنيبعل بجرأة ومخاطرة وهو واثق أنه سيصل إلى روما...

تصفّحتُ وجهه جيداً، وكأنه وجه جامع طينال الواقف من سنين فاتحاً يديه مستقبلاً أسياد البحر الأبيض المتوسط ناثراً عطر فيحاء يفور ليملأ الحواس محبّة ومودّة..

كلما أمعنت النظر إليه هربت روحي إلى مكان بعيد حيث حروفه تحمل هموم طرابلس، فاستوقفتني كلماته إلى «المايسترو»

رئيس التحرير أو «أرمسترونغ طرابلس» كما يقول، وكأنها رحيق يمتصه النحل، فتشعر بحلاوة الألفة...

أيها المحارب... لم أكتب يوماً إلّا حرفاً بسيطاً... عن أحلام امرأة هاربة من الحياة إلى أنثى تاهت في سماء الأدب دون أجنحة تساعدها على الطيران في أجواء مشحونة أحياناً!.. إنه زمن الثورات على أوراق تفتش عن زوايا جميلة وسط زحام الأفكار بعيداً عن التقليد، فاسمعني...

أفكر في الحياة بقسوة رقيقة تدفعني نحو مغامرات أستكشف فيها زماني، وأتذوق طعم النصر والقوة كما أتذوق طعم الفشل الجميل لأكسب في فشلي أخاً أو أباً أو صديقاً مخلصاً في كل مرة وأنا أبثّ الأوراق أشجاني، نسيت العمر وتخلّيت عنه لأنني وجدت نهراً فياضاً لوجعي، ودواءً للجرح الذي بتر أحزاني، وكلمة هي أنا التي ترحل بين عيون رجمتني فرحمتني، وجعلتني أتسلّق جبال الأدب بعنفوان ألبسني ثوب جمال زادني أدباً...

فأنا وردة انتزعت أشواكها، وخلعت قبّعة الحزن حين جلست على أوراقها والقلب غارق في صحوة تمزق شراينه من أجل الحياة التي نتأمل أن نحياها في مدينة الشمس الغافية على كتف القلعة الأثرية التي تتأمل البحر وبين أسوار مملكة جمعتنا ملوكاً وجيوشاً هي جريدة «الإنشاء»...

إنه بريق الأفق الذي يتّسع بيننا ويمتد ليتحدّى قساوة الحياة، ويمزّق المسافات على صفحات تشعّ اشتياقاً إلى الحرية، إننا بين يدي «نيتشه» مع «زهرة الجليد» على سواحل الأرواح وهو ينطلق بنا نحو الشمس، نحو قلم يكابد هواجس الوحي الذي ينزل على أوراقنا، لينقش المحبّة النبيلة والعاطفة الصوفية التي تسمو بنا نحو تماسك واقعي لينتشل الأنفس من بؤرة الحياة القاسية والثورات التي تتقاذف عقولنا في حروب داخلية وخارجية إلى سلام الكلمة القوية التي تخترق القلوب...

ما عساي أقول أيها الأخ المحارب؟..

نحن في طواف حول كلمة نؤمن بها، ومدينة تفوح منها عطور الزمن المنتصر على أوجاع أيادٍ أهملتنا، لكنها تقرأ ما نكتب وتتساءل من نحن؟.. من نكون؟.. وتهرب في وجودنا كأننا صقور كلمة تنهش وجوه الغرباء عن المعرفة، فمهما ارتفعنا نحو الخيال سنقع على أرض الحقيقة الصلبة التي تؤلمنا، ونحن على معرفة أن الثقافة لا تولد إلّا حين يغادر الجسد رماد الأوراق التي تشتعل في حضورنا، وفي أقلام تبني سجوناً لكل كاتب ليحيا سجيناً حراً على أوراقه، أو محارباً يطمح لحكمة تقوده إلى استراحة تهدف بث فلسفة دفاعية قادرة على بناء الإنسان في لغة لا تشبه صليل السيوف!.. ولا أزيز الرصاص!.. ولا انفجارات القذائف في

الطرقات!.. لغة هي إيقاع حنكة تردع عنّا الخوف الذي يجعل من الروح منازل لا يسكنها إلّا رجل يمسك بالقلم، كأنه يمسك راية مجد ترفرف في يد محارب.. فهل «رأيت.. قرأت.. وكتبت»؟.. أم هل عشت مع «ظواهر» «الإنشاء»!.. لتشارك الناس حزنها فرحها وشكواها؟.. أم هي «حكي جرايد».. و«إضاءات» تعشّش في «أوراق المفكرة» التي ينسجها الأب سرّوج..

في كل ساحة من ميادين اللغة «كلام مسؤول»، وعند كل مفترق نتساءل كيف هيك؟.. وفي ظل الصفحة الثقافية أطياف الحقيقة تتوسط مدن الخيال. فهل نعبر العالم مع «جان رطل» ونحن نشاهد المعارض والأفلام والمتاحف؟.. أم نحن مريدون نجلس تحت شجرة يفوح منها عطر زهر الليمون؟ أم نحيا في فلسطين الأم ونحن في شموخ لبنان العظيم؟...

رأيت وجهك أول مرة في خطوط بارزة، كأنها مفردات كتبتها السنون على وجه أسمر مشدود، مشرق في موطن هو لنا!.. يتوقف الزمان فيه، كأننا في عمق الحياة خلقنا معاً أرواحاً تنتمي إلى فكر وحدنا لأننا نستنشق هواء طرابلس عروس الشمال في سدة وطن نحرره، فيحررنا..

هكذا نحن في أروقة الحياة وردة في يد محارب نبني مدننا، لنفتح أبواب الأدب ونفرش الساحات غاراً، فتنتعش الذاكرة

ويمسك الماضي الحاضر، ويتناغم الزمن، فيتناثر العطر على خدود القرّاء، وتملأ الصيحات ساحة وغى لا ينتحر فيها الفكر، بل ينتصر... ولا يهدأ القلب إلّا والكلمات تتوّج الأنامل بالأمل والحياة تفرش الحدائق الغنّاء وتعلو تغريدة حميمة تملأ الآذان...

سررت بكلماتك التي تشبه الفجر.. وهي تعانق بأضوائها حواسي، فثمة معنى مفقود في روحي، جعلتني أجده بقوة أرادتك وعزيمتك، واحترامك للأخوّة بيننا، ومخيّلة فتحتَ لي أبوابها كي أراك محارباً حكيماً في فلسفة إيمانية خاصة أبحر معها في طواف كوني مذهل، فهل تغيب الوجوه مع الحروف؟... أم تحيا في كل قلب قرأ فتذوّق؟.. وهل يموت الليل عند إشراقة الفجر؟.. أم يولد الغروب بين خيوط العتمة؟.. أم تنسكب الرمال ذهباً على عتبات وطن وجريدة جمعتنا؟..

وسط فراغ! .....

ماذا سنخلق؟...

سنخلق الحقيقة ونكتب مفارقة الواقع...

إنه الحدس حين يخلو من التصور ويعجز عن جمع الإدراك بين الحقيقة والواقع، ماذا لو وضعناهما وسط فراغ؟..

أكره النفاق والتملّق كثيراً، وأي إنسان أرى فيه هاتين الخصلتين لا أقول له مرحباً..

ولماذا تتكلّم عن النفاق الآن؟.. فالعلاقة بيننا ليست عضوية هي فكرية.. حقيقية.. وربما افتراضية؟..

النفاق لأنني أتخطى ولا أنسى، وإن سبّبت بعض الألم لنفسي لا أبكي، بل أتعالى؛ إنه التحاور بين الحسّ والعقل في التحام فراغي ربما يدعوك للنفاق...

أنتِ تختلفين.. تمتلكين حساسية من نوع خاص وعليك أن تحتمليني..

أنتَ تمتلك الواقع أم الحقيقة؟..

أنا الواقع حين أسير على أرضكِ والحقيقة في سمائك أيتها الأنثى...

أنتَ صاحب فكر لكنني أحتاج إلى ولادة موهبتي وعبقريتي، فهل ستتولد بيننا معرفة ذات ثقافات جديدة؟..

أنا لست صاحب فكر، أنا عقل وجوهر، فهل تشعرين سطوتي عليكِ؟..

أنتَ مختلف..

دع أجنحتي تتفتّح، بمقدار ما تثير فيك من مشاعر حياتية جمالية دون أن تكون بيننا نزوة...

أتخافين؟.. لن تكون سيرتنا إشباعاً عابراً..

جعلتني وسط فراغ...

أنا فضاء لك مفرغ كلياً من أي زمن ماض أو أي زمن حاضر، ولكنني لست بعيداً عن سطح الأرض أنا بجانبك..

يقول سبينوزا: «الطبيعة ترتعب من الفراغ» فإما أن نكون وإما لا نكون!..

لا تخافي أنت في كفّ يدي في الواقع الذي أخلقه لكِ.

ماذا تعني لك الكفّ؟..

قلبي...

وأين قلبك؟..

كل روحي.. التعشّق.. التناغم.. الانصهار.. التمدد.. إلى كل الكون في ما لا نهاية..

يحيا الرجل الحياة بواقعية الوهم وتشع الفرضيات عبر شبكة عنكبوتية ويبقى شيء ما في أنفسنا وسط فراغ، فنتلاصق كما يتلاصق العطر في الورود لنصبح أقوى من أعاصير أية ثورة تسبب الألم للشعوب الضعيفة التي لا تقوى على مفارقة الواقع، فتعيد ذكرياتها التاريخية في ألوان دماء زاهية..

إنه الموت، إنه الواقع، لأنه التحدي للوجود في وجود أكبر..

وماذا سنخلق في كل هذا؟..

الذات.. أنا وأنتِ... سنخلق الحقيقة وسط فراغ مع احترام لصانع الدنيا لأنه مبدع والإنسان ضعيف...

أيقونة في هذا المربع.. رجل في الواقع

أصابع تتألم وفي كل أيقونة مربع يصعب تفسيره.. رموز!.. وجوه ضاحكة!.. وكلمات تتناثر هنا وهناك، كأنها ورقة مفروشة بالورد تدفعني لأشم عبيرها..

من أنـت؟.. في خلق الله البشر والإنسان، فمن أنت؟.. أنثى؟!.. امرأة؟!..

هناك أنثى في البشر؟.. وأنثى في الإنسان؟.. فمن أنت؟..

أنثى على الورق وامرأة في الحياة الإنسانية..

أنثى على الـورق؟.. أم امرأة من دائرة البشرية.. أم دائرة الإنسانية؟..

لا أحبّ الدوائر، فالدائرة مصدر عذاب، عليهم ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾..

أنت في المستطيل أفضل؟..

لا أحب الأشكال الهندسية، وهي تحاصرني، هل أنت فنان تأخذك الأشكال الهندسية؟..

وجوه متعددة في أيقونات مربعة ظهرت، وهي مع كل حركة من حركاتها تزعجني وتحبّب لي المتابعة رغم ضجيج الغيظ الذي بدأ يُحدق إليّ، وأنا أضرب الأحرف ضرباً كأنني أدفعها للخروج مرغمة..

إن كنت إنسانة فما لغتك؟..

لغة الخلق الأولى..

لم تعرّفني عن نفسك؟...

طقطق الرمز في الأيقونة الخضراء ضاحكاً، وكأنه يصارع أصوات الحياة الحقيقية رافضاً التعريف عن نفسه..

أنت كالشياطين تدخل على ابن آدم فتعرفه ولا يعرفك هو.. إلّا بالحسّ الغيبي الموجود فيها، وبهذا أنت عرفتني ولم أعرفك فعذراً..

هل سألتك عن عمرك؟.. عن هواياتك؟.. عن جنسيتك؟...

قرأت لي فعرفتني، نحن نسكن الحرف، بل الحرف يرسم الهوية ويكتب العمر إلّا أن الحرف لا جنس له فهو وطن للجميع دون فرق بين أبيض وأسود... فأنا حرفي وحرفي أنا.

حرفك يعني الحروف ونقاطها. والنقطة هي الآخر الذي

يكتمل به معنى حرفك. لا بأس سأتجرّد من فعل الشياطين وأكون ملائكياً..

أنا عبدالله صالح..

من ثالوثك هذا في قلبي واحد...

أنا رجل في الواقع..

بحثت عن كوب «النسكافيه» فوجدته فارغاً.. بحثت عن قلمي فلم أجد رصاصاً فيه.. ضغطت على أيقونة الذاكرة فوجدتها ممتلئة تحتاج إلى تفريغ..

عملية تفريغها تحتاج إلى دوزنة متكاملة لكي تتناغم مع مقدار ما أضعه فيها من أفكاري؛ فالذاكرة الإلكترونية تختلف عن ذاكرة الإنسان...

أين أنتِ؟...

هنا.. أحاول تفريغ الذاكرة...

التفريغ يحتاج إلى ضبط النفس، لأن له تأثيراً إيجابياً على الأشياء، يساعد على الإحساس بالتطوير الذهني، هل تعرفين طاقة الامتلاء والتفريغ؟...

سأبدأ بتفريغ ذاكرتي أنا لتبقى الحقيقة، فقط الحقيقة..

من يصل إلى الحقيقة في الحياة يمتّ.. كما أن التفريغ الميكانيكي يختلف عن التفريغ الإلهي العاصف، ذاك هادئ

ويحتاج إلى تفكير بسيط كإعادة البرمجة مثلاً والتفريغ البشري إلهي عاصف يستحضر نشوة الكون كله.. مثل كوكب ينفجر...

يا إلهي.. يشبه يوم القيامة تفريغ طاقات مشحونة بنشوة كبرى..

ربما سننتظر كثيراً لنعرف الحقيقة.

عدنا إلى الحقيقة.. متى تكتمل فأراها؟..

عليكِ أن تؤمني!..

أؤمن بماذا؟..

بالحقيقة....

هل هناك حقيقة كاملة؟..

توجد الحقيقة فيما نجهل ولكن حتى نعيش يجب أن نؤمن بحقائق نختلقها وتكون من صنع أحلامنا الوردية، والجواب ربما قاتل..

ما هو الجواب القاتل؟..

الحقيقة..

خرجت إلى شرفتي ونظرت إلى الشارع المقفر في ليل يختلف وكأن الأحياء في الليل أكثر من الأموات، والظلام يطفئ ضوء مصابيح البلدية فيجعلها كالحوانيت المغلقة التي تنتظر الأموات...

مذبحة غباء دموية...

هز صفحة الكلام كي يتفقّد وجودي وأرسل كل الأشكال التي تضحك وتبكي وكأنه عصفور يضرب زجـاج نافذتي بجناحيه، حدقت إلى حروف buzz!!! سألت نفسي ما الذي أريده؟.. أحبّه؟.. أكرهه؟.. أنتقم منه؟.. أسجنه؟.. أم أنه داخلي الآن؟.. هل أهرب؟.. هل أصرخ؟.. كيف ينتهي كل هذا؟..

طبعت قبلة على سبابتي، داعبت ثغري، لامست أجفاني، لماذا هذا الجسد الثقيل كأننا داخل سجن أو في متاهة زمنية؟ هل نستقبل إشارات عاطفية تجعلنا في اشتعال لا يشبه الشمعة ولا لهيبها، لا يشبه الشمس ولا هالتها؟. وحده يعلم، بل يثق أنني أتمنى أن أمارس لعبة الاختفاء، كم أتمنى المشي حافية القدمين وأشعر بخشونة حياة لم تشف قلبي، لأتحسس قساوة حجارة كالقلوب التي تتلاعب في طواحين الهواء، فتتقطّع وتنثرها رياح أنفاس متعبة...

آه.. لماذا تعصرينني؟..

آسفة!... لم أشعر بقساوتي عليك..

أشعر بوجع يدك في يدي..

جميل لون الدم، أشعر بجمال اللون الأحمر لأول مرة.

هو الحياة، هو عنوانها، وترياقها رمزها وبكورتها، هو أنتِ..

لملمت الزجاج المتكسّر وحاولت جمع الكوب لكنه خذلني ولم يتماسك بعد أن رسم جروحاً على كفّي..

buzz !!!.. ماذا تفعلين؟..

أكتب بدمائي على ورقتي.

ماذا تكتبين؟..

لا أريد الكذب، سأصمت..

هذا صمت كاذب..

الدم حقيقة تسيل على ثوبي؛ لون أرجواني سحرني، صدفة المورکس؟ فتنة لون فينيقي تاريخي!.. هذه السوريالية ساخرة...

جروح يدي تنزف يا إلهي.. هل جنّ عقلي؟ أم جنّ قلم يكتب ما يرى؟ أم قلب ينبض في صدر أكاد أمزّقه.. كأنني على مفترق طرق في غابة مظلمة؟ هل أكتب على ورقة سوداء؟ لا بد من إشعال الكلمات كي تضيء لي بصيرتي التي فقدت جزءًا منها قبل أن تتجمد الدماء..

أغلقت الفراغات البيضاء التي كانت أمامي، وكأنها فواصل تقنية لنص لم أكتبه، رائحة دماء تنبعث من ثوبي وكأن مذبحة وقعت على أرض ما أمامي، هل يزهر الربيع من دماء تسيل كالمطر؟..

سأجفّفك؟.. سأجعل عناصر الحياة تلامسك فتقتلك؟..

هل ستفاوضين قدري لتعيديني إلى الداخل كي أحيا؟..

لا، سأجعلك تجف وأزيلك كما يزيل اليهود البيوت القديمة من أرض فلسطين؟..

مازوشية أنت، بل إرهابية...

ما هو الإرهاب؟ لا مبالاة بحقوق الآخرين؟.. انتهاك؟.. اغتصاب؟.. إرسال الأرواح إلى جهنم؟.. اطمئن لا أملك ذاكرة مفرغة كورقة بيضاء ولست مبرمجة للإرهاب..

ماذا أصابك؟ أأنتِ في هذيان؟.. بل أنتِ في جنون؟..

أنا في حالة غضب، في حالة حب صامت، في ربيع يتأجج داخلي وها هو يزهر من دمائي أمامي.

لماذا الغضب؟..

أشعر بالغضب من قسوتك، من صمتك، من عدم اهتمامك بي، من قنوطك وأنانيتك، من تجمّدك في يدي دائماً، وها أنت تكسّرت كتماثيل صدام حسين..

أنتِ تتقصّدين سلب حياة دماء لا ذنب لها، هل تصنعين مجزرة بحقي؟.. أم ترسمين لوحة حمراء تحتضر الأشكال فيها، فتشعرين بالسعادة؟..

أنت خرجت دون إذن مني، وملأت ثوبي دمـاءً.. كل ما أفعله، أحاول إعادتك إلى الداخل، أو أن أجففك حتى أستطيع إزالتك!!..

هذه مذبحة بحق كريات دمك، وبحق كوب انفجر غضباً من قسوتك..

كما تشاء لتكن مذبحة غباء دموية...

«كمستري Chemistry» ! ..

كانت الطيور تودع أشهر السنة بأجنحة متثاقلة، وهي تمر فوق البحيرة، وكأنها ترسم طريق رحلتها بعد أن أودعت الماء أسرارها لتنهض الشمس قوية مع الحقول التي تتناغم، والجبال القوية تتلون بألوان ذهبية مع جباه الصيادين وهم يراقبون دورانها ويترقبونها لتقترب قبل أن تبدأ رائحة البارود في اختراق تفاعلي مع الحواس...

أمسكت رفيقتي عنقود العنب، وضعته في كفّي، ومشت تنقل خُطاها كأنها تداعب الأرض في صمتها المعهود. كأنها استشعرت حاجتي لمذاق سكري يصيبني بنشوة الوهم لتتململ حبّات العنب بين شفتي فأمتصُّ رحيقها كنحلة تتذوق الحياة من زهرة برية...

مسحت شعري بيدي المبلّلتين بعد أن لعبت بماء بحيرة «بنشعي» وهي تلمع في عيون الشمس لتدغدغ صورتي قبل أن أرى وجهه خلفي والذعر قد أصابني.. سقط شالي في البحيرة..

رفعت قبعة القش عن الأرض وخبّأت فيها شعري قدر المستطاع وهو ينظر إليّ وكأنه يحفظ حركاتي...

ما بك؟.. أرعبتني قل مرحبا.. أو ارفع صوت خطواتك كي أشعر بك تقترب؟..

أنت إلهة.. وأنا في الظلام.. أوشك أن أختفي.. قبل أن أمارس ثورة عقلانية مع استثنائية مرتبطة بجذورها..

رجل جريء.. تفاجئ الأنثى.. وأنت تمارس لغة الوعي والارتقاء..

هل تفاجأت؟..

نعم.. فوجئت بك!..

ماذا تشعرين؟..

أتساءل: من أنت؟..

لا وقت للأسئلة، عليك أن تستسلمي وكفى.. أنت لي.. لا تتصدي لعقلي الثوري..

وهل يكفي الاستسلام؟..

لا.. بل أن تقولي لي أستسلم، وأن تؤمني بي..

هذه تبريرات إيديولوجية! الإيمان يحتاج إلى يقين، واليقين إدراك حسّي ورؤية.. والاستسلام وثيقة نكتبها بجوارحنا، وهي تناغم حاد بين الوعي واللاوعي وفق قياسات فكرية..

أنا يقينك الكامل.. أريدك لي.. ثوبك الأسود ارفعيه.. وأريني جمال ساقيك.. علينا أن نرسم حلقة جدلية بسيطة.. أريد خضوعك كاملاً دون أية تبريرات ليبدأ الربيع بيننا..

لست بلقيس يا رجل.. لم تبن لي صرحاً كي أمشي على الماء.. أنت كائن لا يُشبهه شيء.. أنت مثلث مغلق الأضلاع.. تقبّل سياسة الرفض الهادئ وارحل..

أنا لا أطلب سوى مرة واحدة..

هذه قوافل شهوتك من حضارة وتمدّن.. انتبه..

بل هي قوافل بداوة وتحضّر.. إنه تطور الوعي نحو الولاء المطلق..

هي.. مأساة نفس صامتة في موطن الأحرار، وتبقى كلمة بلا إيقاع تفتش عن نغمة في سجن مقيّد بلا صدى..

هذا افتراض.. وتقليد بائد.. لكن الحقيقة أنني أخترقك..

أخترقك.. هههه، يعني فعل ماض ومستقبل، واختراق يؤكد قيمة الإنسان، بل ويتجاوزه في تصورات هي في مخيّلتك فقط..

بل، حاضر ومستقبل يا أنثاي، وزمن يرسم ربيعاً أنثوياً مضرجاً بلون أحمر، هو تفوّق تاريخي عظيم مع قوى طبيعية تؤكد هذا..

أنت ترتجفين..

أرتجف! نعم، لكن لا أريدك، أنت سراب وأنا أحتاج إلى الحقيقة..

هذه فلسفة وجود ربما توافرت لها كل العناصر التي تؤكد استسلامك.

نعم وجودك في ذاته فلسفة، وربما اعتداء غير مبرر على فصولي كلها، فأين الحقيقة؟..

الحقيقة قد تكلّفك فقدي..

لن أسألك لماذا؟.. أكتفي بمعرفتنا هكذا.. فارحل قبل أن أعلن الثورة والعصيان. نفسك المعادية ليقيني تغوص في أعماق الظلمة، لتختزن خوفي وتستنفر حواسي كلها لمجابهتك..

هذا تناقض عقلي مخيف، أنت محاصرة وتتوشحين بالحزن، لأنك تدركين أن لا قدرة لك بمواجهتي، هذا «كمستري» تاريخي أقدّمه لك..

«كمستري»؟..

نعم، اندماج يبلغ الـذروة القصوى.. نار ودخـان، دماء وتراب، ماء وأنا وأنت وتاريخ حضارة جديد..

تعكّر ماء البحيرة حين رحل كانت دمعتي تبكي وكأنها تعيد

تكوين بحيرة في نفسي لأبقى رهينة زمن لم يختلط مع الحقيقة، و«كمستري» عنيف مجهول الهوية والتاريخ..

ملاحظة: «الكمستري» هو الانسجام والتوافق والقبول بين الطرفين، وهو أشبه ما يكون بالسحر.

مائدة الحياة..

هل تريدين سيرة حياتي على ورق زهرة؟..

نظرت إليه باستغراب ودهشة: «أبو الزهور».. أما زلت تعيش في هذه المدينة؟.

لا أستطيع ترك مدينة الجنون، أين سأكون أيتها المجنونة؟.

نظر إليّ ومعالم الغضب تبدو على تفاصيل وجهه، وأنفه يتراقص كما تتراقص مئات الزهور على ثوبه المخفي، ربما هو يرتدي قناع الزيف، هل يمكن أن يكون مخابرات؟ لطالما رأيته منذ كنت طفلة وأنا أجلس في حديقة المنشية وسط التل وبين ضجيج السيارات.

لماذا تكلّمين نفسك بدون صوت أسمعه؟ أنا هو يا غبية، أستطيع سماعك كما أسمع زهراتي وأتعطّر بهن وبألوانهن. لا يستطيع الإنسان أن يتكلم دون خوف إلّا مع الطبيعة لأنها تشبهني وتتمتع بكل التناقضات التي تجعلني أحبها، ولا أشعر أنها تحتوي على الشر، كما يحتوي العطر على الخير.

الخير؟..

هل تعرف الخير والشر؟..

نعم، هو في راية الحياة الموجودة في السماء حين تمطر صيفاً وتجف شتاءً.

وكيف ذلك؟..

هل تتّهم الطبيعة بالشرّ، والخير فيها مجتمع؟ أم أنك ترتدي قناع الجنون؟ إن العقدة العصبية تصل إلى ذروتها في عقلك أحياناً.. يا «أبا الزهور» لا تكلمني كأنك سقراط.

سقراط يشبه الكون الكبير، هو أعمى وأنا بصير، هو لا يعلم شيئاً، وأنا أعلم أنه هو العليم البصير، هو يخاف الموت ويقول عنه فزاعة، وأنا أخاف الحياة وأقول عنها هي كالصراط، كلّما مشيت فيها تأرجحت خوفاً من السقوط، هو يقول إن الحظوظ لها أوقاتها وربنا يقول: ﴿...وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، وأنا أؤمن أن الله جعلني ذا حظ جميل.

ها أنت تعرف سقراط، ثمة من يقرأ لك عنه؟ أم أنك تقرأ؟..

أنا أبوابي كلها مفتوحة، أجلس مع الجاهل والمتعلّم فأتعلم منهما، وأجلس مع الطفل والمتسوّل، وأجلس مع النواب أصحاب كل نائبة تصيبني بالجمود، أحياناً الكل يفتح أبوابه لي، وأحياناً تبقى الأبواب مغلقة إلّا باب الجنة التي أراها في مخيلتي، فأغفو وأنا سعيد، ما أمتلكه لا يمتلكه سواي.

ذكّرتني بـ«أخوَت شناي».

أخذ نفساً عميقاً، أفزعني وهو يتفحّص الزهور المعلّقة على ثيابه وقد تغيّرت معالم وجهه، وكأنه ينظر إلى حبيبة أو شيء ثمين عنده. مزعجة أنت، بل غبية سأخترق ذهنك هذا وأقرأ أفكارك المطموسة في ذهنك المرتبك، كي أجعل عطرها كزهوري.

أعذرني، ربما أزعجتك.

أنت تجهلين ذاتك لهذا تسألين، ولا تعرفين الوصول إلى الحقيقة، هل تظنّين أنني مجنون، أنتم تفقدون القدرة على النطق ومن ثم تتّهمون الناس بالصمت، ترمون المفاتيح في النّور وتبحثون عنها في الظلام!.

أنـتـم؟.. من تقصد بأنتم؟.. ألست منّا؟ أم أنـك من الملائكة؟..

أنا رجل عاقل وأنتم مجانين...

لماذا تحمل كل هذه الزهور؟ وماذا تخفي تحتها؟..

أحملها!..

هي التي تتحمّلني وتحملني، أنا ابنها وهي ولدتني من عطرها. أنا كالأريج أدخل الحواس دون استئذان، كما أدخل الأبواب ولا أنتظر من يفتحها لي.

ماذا تقصد؟..

ما هذه الزهرة؟.. هل تعرفينها؟..

هذه زهرة المرغريت..

بل عين البقرة، هههه.. حاجباك التصقا ببعضهما، وشفتك العليا ارتفعت، تحتاجين مرآة، فكل شيء في وجهك ارتفع، طيّب هذه زهرة العشاق هل يعجبك هذا؟.. ما هي إلّا أسماء سميتموها.. كل زهرة أقطفها أعيدها إلى الحياة مرة أخرى حين أهديها إلى شخص أحبّه.

أين زهرتي؟..

كم أنت غبية؟.. وهل تحتاجين زهرة؟..

نعم.. أحتاجها لأهديها إلى أبي.

ما من أحد إلّا ويشمّ عطره، لكن لا أعرف ما هو عطره؟ ومن أية زهرة يستخرجه، ربما زهرة عبّاد الشمس لأنها تدور كعقارب الساعة تبحث عن وجه الشمس، والموت له أسراره التي أعرفها أحياناً وتحبها زهوري، ابحثي عن عطره هل بقي في الحياة؟ هل من ولد صالح يدعو له؟ هل من كلمة طيبة في ذاكرة أصحابه؟..

أدمعت عينّي بكلامك يا «أبا الزهور»، كنت أسمع كلامك مع أبي ولا أفهمه، كان يضحك حين يتكلم معك وكأن لغة ما كانت بينكما. لكن لماذا تتظاهر بالجنون وتضع كل هذه الزهور على ثيابك؟..

ألا تكفي زهرة واحدة على ثوبك؟..

إن العطر أشد بلاغة من الحياة، وأنا أخافه وهو لا يخافني، لكنه يجعل البعض يشعر بوجودي؛ وأنا غير موجود؛ فالزهور كالطعام، أحياناً تمتد يد طفل لتأخذ مني زهرة، فأشعر كأنني تربة خصبة.. أنا مائدة الحياة.

يقول سقراط: «إن كان ضيوفي عقلاء فعلى المائدة ما يكفيهم، وإن لم يكونوا عقلاء فعلى المائدة أكثر مما يستحقون..». وأنا ضيوفي مجانين مثلك.

ملاحظة: «أبو الزهور» شخصية حقيقية كان يعيش في أسواق طرابلس.

نسوان آخر زمن...

استمعت إلى الأمير بشير وهو يعطي الأوامر بمصادرة أملاك كل إقطاعي يعلن التمرد والعصيان. نظرت إلى وجهه المقطّب وأنفه الذي يهتز، وكأن وجودي الأنثوي لا تأثير له، وأنا أقف أمامه كشمعة تحترق خوفاً. أكمل كلامه بإصرار شديد يوجّهه إلى كبار الموظفين في سلطته العليّة بضرورة انتزاع أرض كل من تسوّل له نفسه التمرد على دولته، وكأنه يخطط بعبقرية لمواجهة تضمن له تنفيذ سياسته..

كنت قد التزمت الصمت حتى ينهي كلامه، حين التفت إليّ بنظرة مخيفة وطلب مني الجلوس على الأريكة المستديرة.

قلت بخوف: حاضر سأفعل...

قال: من أين جئت وماذا تريدين؟..

- جئت من الحاضر لأرى أي خطأ حدث في الماضي، فأصحّحه الآن، نحن دائماً علينا الطاعة لدولة عليا من الماضي

حتى الحاضر، ولكن أتساءل: هل سيدوم هذا الأمر في المستقبل؟..

– إن المنافسة تتعلق بالثقافة التاريخية، وما من حرب باردة إلّا وتسبب التوتر للحكّام وللشعب، ولكن لباسك غريب؟..

– شربت من عصير التوت الذي قدّمته لي جارية جميلة لم أسمع وقع خطاها لنعل ترتديه كخفّ يظهر جمال كعبيها، لكن استنكرت قليلاً واستغربت سؤاله..

– يا أمير!.. البلاد تغلي الآن ولبنان على فوهة بركان فماذا سنفعل؟..

– يجب أن يحظى لبنان برضى الدولة العلية، واختيار النّخبة المثقفة لتمسك بالوحدة السياسية الداخلية قبل أي خيار استراتيجي؛ فالمرحلة مرتبطة بقدرات العقل القادر على التمسك بالمقاييس السياسية التكتيكية التي تحافظ على البلاد، ثم مسح لحيته الطويلة بقوة وكأنه يشدّها بكفّه بعد نفخة كادت تُطفئ الشمعة أمامه.

– لكن لم يعد هناك دولة عليّة، إنما إدارة سياسية قوية تسعى إلى كسب الود بالقوة للحصول على هيمنة متعددة القوى.

– إذاً المماليك مرة أخرى؟.

– تبسّمت قليلاً بعد أن رشفت قليلاً من شراب التوت، وقلت لعلك دفعت كثيراً ثمن وجودك أميراً حتى الآن.

– لا، لأن القبض على الأمير مشرّف، كان من المهمات التي لم تأخذ الكثير من التحضير المسبق حتى أضم بيروت إليّ، ثم حرّك أصابعه وهو يقول إن الرؤية السياسية تختلف باختلاف الحاكم، فكل يد لها ضربة تعبّر عنها، كالنحّات الذي يستعمل إزميله، فقد يصنع تمثالاً من حجر وقد يصنع فأراً من صخر.

– وإن نفذت الرؤية السياسية إلى ما لا نهاية وخرب البلد؟.

– حينها ضعي كأس التوت من إيدك واطلعي برّا وما تشوفيني وجهك؟..

وغضب الأمير بشير ولم أستطع محادثته لأنه خرج متجهماً، وهو يقول: «نسوان آخر زمن»!!.

موجة!..

تثاءب فاتحاً فمه محركاً لسانه بطريقة بهلوانية جعلتني أستجمع بصري كله لأرميه بعيداً عن لوحة ذكّرتني بتلك النبتة التي تلتهم كل شيء، وضع رجله اليمنى فوق شقيقتها وشدّ على فخذيه حتى ظننت أنه يكبت شيئاً ثائراً يخاف أن يسلبه أحد منه، وفي نفسي أخفي ذهولاً من أحمق يلوح بأجفانه كأنه يلوح بمنديل صبية تقف على قارعة طريق صحراوي.

لماذا الهروب؟..

أخاف وجودي معك؟..

أشعل ضحكة رأيت منها أسنانه الصفراء مرة أخرى لكن نظرت إليه هذه المرة نظرة جعلته يتباهى، وكأنه يظن نفسه أوغلو أو أمين معلوف أو جورج دولاتور. انتعش بعدها واضعاً يده فوق إحدى ركبتيه واليد الأخرى على خده، وكأنه ينتظر رساماً ليرسمه كما رسم الموناليزا.. سألته:

هل تعشق نفسك؟..

رمقني بنظرة ظننت أنه لن يتكلم بعدها، زمّ شفتيه وشعرت بقبضة يده كأنها تتجهز لضربة «بوكس» ستصيبني لا محال في مكان ما على وجهي، بقي نصف ساعة انتظار، والطائرة ستقلع في الثالثة والنصف، والانتظار ممل..

بقي صامتاً يقرأ لدقائق.. حدثت نفسي فيها ليفجّر صمته فجأة ويقول: «أعشقكِ»!..

أنا؟!..

نعم أنتِ..

يا رجل التقينا منذ ساعات فقط، فكيف تعشق بدقائق لم تكتمل!.. دقائق ما زالت في مراحلها الجنينية الأولى، انتظر نمو الزمن بيننا، ثم اعترف كما تشاء بعشق امرأة، أتظن نفسك باولو كويلو! أم بول أوستر، أم أنني في سن المراهقة، وسأطير كفراشة فرحاً، سألعن هذا المهرجان الذي فرض وجودي معك!..

ضحك مرة أخرى وكأنه الفك المفترس. لم أستطع الصبر على صمت سأنفجر منه..

هل تستعرض ضحايا العالم دائماً أمام الناس بطريقة ساخرة ومقرفة؟.

ماذا تقولين؟ عفواً؟.. لم أفهم؟؟..

هل تفتح فمك دائماً هكذا لكل إنسان تحادثه، فيرى الأنياب والقواطع؟ بل ويرى الأفعى التي تتلوى داخلك؟..

تجهم وجهه هذه المرة، أخذ شهيقاً ملأ رئتيه ثم زفر كأسد، وكأنه يستعرض قواه أمام لبوة ليست أنا بالتأكيد..

أنتِ وقحة؟..

استرخيت، وكأن ما قاله تعبير جعلني أشعر بالرضى؛ فالمرايا الداخلية تعكس كل تفكير قد نفكر به، هزّ رجله وكأن الحذاء سيطير بعد قليل ليضرب وجه رئيس مرسوم في مخيّلتي.

فتحت حقيبتي الجلدية، أخرجت منها كل ما فيها، وتركت أشيائي على الكرسي، وعدت إلى صمت ساكن أتأمل المكان.

مجنونة ببقايا امرأة أفقدتني صوابي؟..

ماذا تفعلين؟ الكل ينظر كأن عيون «ويكيليكس» تتوزع هنا.

فعلت كما فعلت أنت!.. أخرجت كل ما في الداخل إلى الخارج..

مؤكد مجنونة، أنت تفتقدين لقاعدة العلّة والسبب! أنا في مهمة محددة، وأنتِ تسخرين!.

لا جدوى من الجلوس أمام موجة جميلة لا تدرك قيمة بحر مدّ أطرافه لها.

موجة جميلة؟..

اقرأي هذه المسرحية، وستفهمين يا موجتي..

قبلة من هجير...

تساقط الثلج ليلتها!... في كل أنحاء المدينة الغافية، والبرد أصبح شديداً، فانخفاض درجات الحرارة بدا ظاهراً من مداخن المدافئ المشتعلة في البيوت، وكأن المدينة يلفها ضباب أنفاس كآبة مخنوقة داخل الصدور، ولهيب الثلوج المتراكم في الطرقات..

غمر يدها في باطن كفّيه، وكأنه يبعث الدفء في شرايينها، بل يحاول أن يبثّها الحب قبل أن ترحل صباحاً حاملة معها حقيبة ذكرياتها، وتطير رافعة جناحيّ الزمن وهي تنفض عن المكان وجودها، وعن جسدها تلك القبلات التي بقيت عالقة في روح ترفرف دائماً، معلنة الرحيل في كل محطة باردة عاشت فيها قصة حب تعيدها إلى وجه افتقدته دائماً..

تجمعت الثلوج وتراكمت! وحوّلها برد الليل إلى جليد قاس. أزرار قميصها الرمادي مفتوحة تظهر الصدر الجميل وتلك القلادة التي ترتديها منذ عرفها أول مرة، وهي تزور عيادته النفسية،

أمسكت بتنورة قصيرة وهو يتأملها والدمعة حبيسة في عينيه. كأن الروح تغادر الجسد في هجير يوم تاريخي، فأصابع قدميها تشير إلى توترها النفسي، وكبت تخفيه عنه كي لا يشعر بضعفها وهو من اختار البقاء مع مرضاه ومع زوجة اختارها لبناء أُسرة فقط، بعد أن فقد أي إحساس بالحبّ...

أحسّ بقوة حبّها، وأصابع قدميها مشدودة على بعض، وهي تتنقل أمامه كعصفورة سترحل إلى البعيد، أشعلت سيكارتها الرفيعة وهي ترتّب حقيبة سفرها.. أمسكت بيدها إطار لوحة سداسية فارغة من أية صورة، سألها مستغرباً لماذا تضعين الإطار فارغاً من أية صورة؟! أين صورتنا معاً؟؟..

ضحكت بصوت عال وكأنها تبكي اللحظة الأخيرة قبل أن تنطلق دون أن تنظر إلى الخلف نظرة لتحيا الآن في كل لحظة جعلتها تخسر قلباً أحبّها..

لا أحتاج إلى صورتنا معاً، فصورتنا في ذاكرتي ستبقى متى أريدها أستحضرها، والإطار لأضع فيه صورة أخرى أحملها معي كل مرة حيث أكون..

تجمعت الغيوم والفجر يشق وجه السماء؛ فالصورة من النافذة الكبيرة في ذاك البيت الجبلي البعيد تتماهى بألوان عينيها قبل أن يبدأ الصباح، ارتمت على صدره وهي تمسك بربطة العنق

التي تحبّها لتربطها له، لترحل إلى المحطة الأخيرة في وطنها الحقيقي.

تعاليّ إليّ..

رمقته والأهداب السوداء كأنها سنونو مغادر في سمائه التي امتلأت برحيل نساء لم يشعر معهن كما يشعر الآن!.. كأنه يموت في حرب كان يخافها، فالجثث من حوله تخيفه، وهي تتناثر والموت يأخذ كل من يُحبّ لكن الحياة كانت أقوى من أي هكيل عظمي مرّ من قربه في تلك الحرب الباردة التي عاشتها بلاده قبل أن يصبح طبيباً...

شدّها إليه بقوة، أفلتت منه وأمسكت برغيف خبز وضعته على المدفأة، وبدأت بتحضير كوبين من الحليب، فالصبح بدأ يتنفس بعد أن هدأت العاصفة الثلجية في الخارج، لتبدأ عاصفة الحزن في قلبه لرحيلها..

رائحة رغيف الخبز ملأت حواسه تذكّر أرغفة الخبز وهو طفل يمسك بثوب أمه، وهي تحضّرها في كوخ صغير يشبه هذا البيت حيث الهررة تموء من برد الشتاء، فالذكريات لا تغادرنا مهما حاولنا النسيان..

كم تشبهين أمي.. وأنت تمسكين بكوب الحليب ورغيف الخبز الساخن، تمالكت نفسها ولم تحرك شفتيها، بل أمسكت بحبال الصمت في ثواني اللحظات الأخيرة قبل أن تلامس شفتاها

الكوب، وهو يتأملها، نظرت إليه بصمت مخيف، وعيناها مثقلتان بالعتب والأسى، قالت: لماذا علّمتني الحبّ؟...

وقفا والحزن يبكي دمعة اختبأت خلف جفن الرحيل وهما شاردان على مقربة من الباب، قبل أن ينطلقا في سيارته الصغيرة التي جمعته بها مرات ومرات والعيون تحمل تفاصيل كل لحظة مضت، كأن كل شيء مات أصبح حياً، فالجليد في الخارج كأنه مرايا ذكريات تتكسر، وتذوب قبل أن يظهر الربيع فاتحاً يديه مستبشراً بقصة حب جديدة يعيشها كل منهما؟..

امتلأ المكان بعبق الرحيل وهو يفكّ ربطة عنقه لتسمح له بمرور هواء بدا كأنه يمتنع عن دخول رئتيه، فتح لها باب السيارة لتدخل وتجلس قربه في صمت وهي تلملم شعرها وترفعه إلى الخلف كما كانت تفعل كل مرة. ارتفعت الشمس قليلاً عند الضحى وهما وسط زحام المدينة..

دنت منه ورسمت قبلة على خدّه، قبل أن تنطلق إلى محطة القطار من دون أن تنظر إلى الخلف نظرة تجعلها تندم على الرحيل..

نظر إليها وصورة زوجته وأولاده تتراءى أمامه ليمسك نفسه من اللحاق بها، فهي تسكن فيه إلى الأبد...

لحظات عاشها ولن ينساها، لكنها زرعت على خدّه قبلة من هجير...

«فش برغر»... وشريطة صفراء..

مسكون بغريزة ذئب يفتش عن طريدة لنهشها.. اهتاج الذئب بي أكثر لأنه شم رائحة دم الآن.

لست ليلى.. والغريزة فطرة نحترمها نشذّبها كما نشذّب الورد ليزداد جمالاً وعطراً تفوح منه رائحة السلام..

التقينا عند زاوية الشارع الرئيس، مشى كهدهد منتفخ الصدر ممسكاً بملف من الجلد الأسود، أدرك أنني أنتظره لأن نظرته لم تخطئ الهدف، نظرة قوية من عين نسر جارح. وضع مفاتيح سيارته على الطاولة برقة متناهية، طلب مني الجلوس بجانبه على كرسيّ من جلد أحمر.. تروقني نظراته وهو يخفي ما في داخله من روح مأسورة في أنامل تنطلق خلف نوافذ الحياة التي تجعلنا نتذوق طعم الضوء الساطع خلف كل عتمة نراها..

لماذا تجلسين هنا؟.. سنجلس في الداخل...

نعم تفضّل...

ربما خليط الألوان هو تعبير عن حالتين منفردتين في تناغم شديد النقاء في قوة تأثير داخلية وخارجية مع سطوع ضبابي معتم ومضيء أحياناً.. قوة!.. عمق!.. سموّ!.. لون أزرق مغامر في ربطة عنق فتحت مساحات الخيال مع لون ثوب رمادي حيادي ومتزن...

ربما ما أتحدث عنه غير مفهوم أبيض وأسود، كبير وصغير، متّسع وضيّق، متناقضات تلف كل ركن في المقهى، تأملت المكان.. هادئ مع صوت «خوليو إغليسياس» الذي ما زالت أغانيه القديمة تبرز وجه صبيّة بين أحضان أبيها، ووجه المحارب القديم ونحن في مبارزة رومانسية هادئة...

أؤمن بقدرة الكلمة على اختراق حاجز القلب الأكبر لتنطلق قوة الاستحضار في مخيّلة المعنى، ولتجعله قادراً على أسر الروح رغم أنني مؤمنة أن الكلمات جزء منّا، بل هي نحن وأكثر لأنها تظهر الجوهر أو العقل..

أحسست كأنه اكتشف المكان من قبل.. ورسم لقاءه الأبيض والأسود وكأن كل شيء جاهز في مشهد فصلي واحد ألبس فيه كل الوجوه أقنعة ليمسك طرف ثوب من ياسمين كما أمسكت القهوة التركية شفتيه قبل أن يبدأ بتذوقها...

في الصالة مكتبة كبيرة تضم الكتب لكن شعرت أنني أجلس

في الهند، في كالكوتا؛ فالفيل الأسود ذو خرطوم متعرج والفيل الأبيض كأنه أنثى، فخرطومها قصير ومتجانس وعلى كنبة ملوكية بيضاء تفتح كفّيها يجلس مسترخياً متأملاً عيني، كأنه يريد أن يقرأ ما فيهما من أسرار، أحسست أن النافذة أمامي كبيرة والشجرة في الخارج تهتز كأنها أنثى تتهادى مع الريح في رقصة فالس.. كأنها ليدي ساحرة ترقص رقصتها المفضّلة والإيقاع همس دافئ وهي تتمايل قبل أن تسقط الشريطة الصفراء التي تمسك فخذها...

ضحكت فجأة فسألني ما يلهيك عنّي؟.. قلت: شريط أصفر يزعجني يجب أن أربطه جيداً على غصن الشجرة التي تهتز أمامي... احتضنت كلماته في صدري، وكأني أنساب مع مشاعره الدافئة وهو يزمجر حيناً ويستسلم أحياناً يسهو قليلاً في قوة معلنة، وكأنه يريد الصبا الذي نحياه في جسد خريفي يشع طاقة صفراء حياتية كونية تجعلنا لا نميّز بين رغبة وحبّ، وبين شهوة وعشق، وبين آدم وحواء، وبين إنسان خلقه الله في أحسن تقويم..

لم أر الذئب في عينيه وأنا راحلة في تفاصيله باسترخاء مهيب للحظات جعلني أشتاق لأخي محمد الحاضر والغائب في الحياة لأناقة احتضنتني، لعطر تبغ جعلني أتشوق لأمدّ يدي كي أخفي في كفّي ما بقي من سيجارة تغاوت ما يكفي بين شفتيه أمامي...

ركن ألغى المكان وصحّح الزمان، فأشرقت الشمس بقوة وكأنها دخلت تستكشف جسدينا لتبثهما الحرارة الحياتية في عالم ربما افتراضي من صنع حب نفتقده كلانا.. جاء «الغارسون» أرخى الستائر، فانخفض الضوء وازداد المكان رومانسية، وضع لائحة الطعام منتظراً ما سنقول..

تركت له الاختيار فيما سنأكل، فاختار «فش برغر» والسمك أكلتي المفضلة جداً...

هل أتـذوّق طعم الحياة أم أتذوق طعم زمن فصلني عن تاريخي.. أم رقصة في خطوات تشبه تفعيلة ما في قصيدة منسية؟؟.. لماذا يقولون «فش برغر» هو مزيج من سمك مطحون مغطس بالبيض ومطحون الكعك، مقلي مع قطعة خبز دائرية، وكأن دائرة السوء ترافقني حتى في الأكل. لم أمد الشوكة إليها، انتزعت منها قطعة السمك وتركتها لدائريتها في صحن دائري بثّ بي الخوف من المستقبل...

حين يشتدّ الخوف وينتزعنا الحلم من واقعية الحياة نعود أطفالاً، نفتح كتب الحياة لنتعلّم منها، ونترك يد الحاضر هي التي تخط الماضي فنتبادل الأدوار ونتمنى لو أن الحياة اكتملت ونحن راحلون نحو رحم موت ستجعلنا نولد في أبدية من صنع أيدينا نزيّنها، نلوّنها نبني الأسوار المعلّقة والحدائق العالية...

لم يصمت، ولم يشعر بالوقت، ونحن نتحدث بتناغم مهيب، وكأن ألوان الأبيض والأسود في المقهى ألوان تمتص إشعاعات الأنفس السلبية لتشرق الشمس من نافذة أمامي لم تنسدل ستائرها وكأنها تصفق لبدء رقصة فالس أخرى بعد أن رمت لي شريطاً أصفر شددته أكثر هذه المرة كي أشعر بمرونة جسدي مع موسيقى نفسي الهادئة، فكلامه العذب يشبه نبع السكر في بخعون صوتاً ومذاقاً وعبيراً وإيقاعاً...

كنت أتساءل: متى يتأهّب الذئب في الإنسان؟.. حين تختفي الرحمة؟.. حين تختفي المودة؟.. أحسست أن حواسي تترصد جسدي لتسيل دمائي فأرى الذئب فيه أكثر.. لكنه يترفع في رقي رجولي شامخ أحببته من رجل ذي قوة تأثير في حقيقة خامرتني، بل سكنت في أعماقي وزادتني يقيناً أن دمه خال من مكر ذئب، فالعينان في ذبول متناه، وكأنه يتمنى لو الزمن يتوقف والمكان يرتفع بنا ليجعلنا في حدائق بابل المعلّقة، فلا يرحل كل منّا إلى عالمه الأبيض والأسود الحقيقي.

قال: إنها الذئاب في أناتها ذات رائحة الجلد المتوحشة...

– لماذا تخيفني منك وأنا لا أرى أي ذئب فيك، بل أنا أجلس مع ملك انكلترا؟..

– ماذا أقول لامرأة استثنائية صعقتني وجعلتني كثلج ينزف بياضه فوق المدن الحالمة؟..

– هل نستبدل الواقع بحياة مجازية برزخية تفصلنا وتجمعنا في آن؟...

– نعم هكذا نحيا...

– من أنا في كلمتين؟..

– شريط أصفر..

– أحسست أن الشريط الأصفر هو وسام تستحقه تلك الشجرة لتخلد ذكرى لن تموت بي.. ورحلنا بين أبيض وأسود في نشوة لا تحمل رائحة دماء ولا تروي قصة ليلى، بل قصة راقصة الفالس والشريط الأصفر...

من أجلك علّقت شريط الشمس الأصفر وساماً لشجرة أحببتها...

شكراً لقدر ملأني يقيناً أن الذئب يموت أمام المحبة، فيولد الإنسان عاشقاً للحياة...

بين العقل والجنون قطرة ندى! ...

يقول نيتشه: «الإيمان بالحقيقة هو الجنون عينه»، ويقول خالد سليكي: «إن الجنون العظيم كان وراء الأعمال العالمية الكبرى التي تفيض إبداعاً، فالكاتب الحقيقي هو الذي يكون مسكوناً بجنون النفاذ إلى عمق الأشياء وكنهها بحثاً.. ».

لا يكتمل عمر الإنسان إلّا حين يحيا بعض الجنون ليستريح من عناء عمر أمضى نصفه عاقلاً، أو كما يقول فوكو: «إن الجنون يغري لأنه معرفة»... فالحياة تمتلك مفاتيح الإيحاء لخيال لغة تجعلنا نُصاب بجنون فتنتها، لكنه جنون مبدع خلّاق..

أمسكت الجريدة بين يدي أقرأ فيها ما كتبه عن السوسن.. الأرجوان.. قارات العالم.. فلسطين.. غزة.. القدس... كأنه يقصّ المسافة بين الأقلام لتتآخى والإيقاع في المعاني يجعل سمعي يشعر بالفتور، وتواريخ الأحداث اليومية تتشابه...

يقول أندريه جيد: «إن أجمل الأشياء هي التي يقترحها

الجنون ويكتبها العقل».. فهل تعيش المرأة مغامرة الجنون ليكتب عقلها ما هو واقع في حياة تنهش من العقول أحياناً؟.. أم تكتفي بما يجعلها تشعر بأمومتها التي أصبحت فترة قصيرة من زمن لا يروي عطش عاطفتها الفياضة؟.. لا بد من الاستكشاف.. أمسكتُ الخلوي وآثار أصابعي ما زالت على الأرقام وكأنني بين مدّ وجزر.. وتردّد جعلني أدرك من هو مُسبقاً، فاليقين أقوى من الشك حين تتكلم لغة القلم لترسم النفس العاقلة في طيات المعاني...

«إن كنت شاعراً مجنوناً فأنا أنتظرك أمام البحر بعد نصف ساعة.. ».

تمتمتُ في نفسي!.. مجنونة هل ستكتشفين قارة جديدة؟.. كل الرجال سواء ما المختلف فيه؟.. كنت أحادث نفسي وكأني مصابة بانفصام في الشخصية.. الليل بارد والعاصفة تكاد تبدأ، وقطرات المطر تتساقط كأنها تلامس جسدي، فتثرثر في أذني، العمر صار ثقيلاً والبراءة اختلّت موازينها، ومن المستحيل ولادة التآخي في النفوس فالشهوات أصبحت مُعتلّة...

في ذاكرة مفرداته تاريخ مثقل بالأسر، فهو يدرك حاجة النفس للعودة إلى الطفولة كحلم العودة إلى فلسطين.. المارّة هم المارّة.. الطريق إلى الميناء كما هو وكأن الحياة تشدّني دائماً لأحيا

في ذاكرة ضيقة تأخذني إلى عالم الطفولة المُحبّب إلى نفسي كي أمشي بين السيارات التي لم تحدّ من اندفاعي لأمشي بين السيول التي سببتها الأمطار.. كأني ممسكة بيد أخي أحمد وهو يدفعني أمامه ونحن نمشي تحت المطر ليلاً لنشتري الدواء لأخي الصغير المولود منذ أيام..

بدت الأضواء أكثر جمالاً وهي تعكس قطرات الماء التي تتراقص فرحة بملامسة بصرية لا تخلو من جنون أيضاً.. وقفت لمراقبة المشهد الجميل ونسيت نفسي وسط الطريق فصرخ أحدهم بي: «مجنونة تريدين الانتحار؟».. لم أفكر بما قاله إلّا بعد أن ابتعدت وتوقفت على الرصيف.. رددتُ في نفسي: «مجنونة.. مجنونة» وكأنني أحدّث نفسي حديثاً لا ينقطع...

أصغيتُ إلى خطواتي.. وصلت إلى المقهى قرب البحر كأن صوت خطواتي إيقاع موج، وإيقاع مطر.. لكن في نفسي حنين لطفولة جعلتني أشعر بحاجتي إلى أخي أحمد ليمسك يدي من جديد ونمشي كما كنا نمشي أطفالاً وهو يضع يده على كتفي كلّما شعر بالخوف من عتمة ليل جعلتنا نرى أضواء الحياة المزهرة..

لعل المشاهد الحياتية تتكرر، تجعلنا نحيا ذكرى طفولة تُشعرنا بالمحبة القادرة على بناء إنسان يحيا سليماً خالياً من تشوهات اجتماعية.. ربما القدر يُعيد رسم ذكرياتي الباقية من

طفولتي والتي تجعلني أحيا الجنون كطفلة تحمل آلة موسيقية تجعلها تدمن إيقاع لغة ساحرة جمعتنا في صفحة ثقافية واحدة، جعلتنا نحيا مع بعضنا في عائلة يقودها نيتشه العظيم «رئيس تحرير» يتسلل إلى أحرف عربية متنوعة تتسرب إلى النفس بمختلف التعبيرات الإنسانية الموجودة فيها والتي تقودك إلى عقل مبدع خلّاق في جنون مذهل...

بدا الموج من النافذة أكثر تخبطاً وكأنه يتقاذفني بين أحلام فلسطين في عقل شاعر نقش حبها على جيناته الوراثية لتتناقلها الأجيال من بعده... بين ورقة وقلم وقصة جديدة أكتبها، وبين حلم جمعنا هو جنون كلمة خالدة يحملها!... جيل لن ينسى تحرير قدس أو تحرير فكر عربي قيّدته جاهلية أخرى...

كان يرتدي قميصاً رمادياً ويحتضن مجموعة كتب في يده اليسرى، ليمد اليد اليمنى مصافحاً صدره.. تأملت ملامحه وهي ملامح رأيتها في رحيق المداد... في توجعاته في كتاب المتنبي.. كأن الزمن على صفحات الكتب يجعلنا نرى المستقبل للخروج إلى فضاءات معانٍ مجنونة ترك نصفها في نهره البارد وأنين مكتبته التي احترقت وجعلته يشعر بفقد فلسطين مرة أخرى....

لبرهة تجمدت كأني قبضت على مفردات نكتبها، نقرأها، نجلس مع المريدين في أحرف الأديب سليم الرافعي.. نسمع

نبض الثائر الأكبر الأب سرّوج.. نرحل بين كتب جديدة في مكتبة نبيل عرابي.. أحسست أن الزمن مشى سريعاً ألف سنة ضوئية وانبعثت في عمر جديد مع أخ ولد، وعائلة أدبية تنتج أطفالاً في لغة ذات فتنة وبراءة خاصة.. نظرت إليه بدهشة لمح فيها استغرابي سألني: ما بك أستاذة ضحى؟...

آه.. كم تشبه أخي؟..

وكم أنت هو ونحن معاً من جديد..

على المكشوف...

لفّ الجريدة بسرعة، ومن ثم تركها على المقعد بعد أن وضع فنجان قهوته على رفّ زجاجي قريب من نافذة مطلة على البحر، ليمسك الخلوي ويتأمل ملامح وجهها الملائكي، تأمل بنطلونه البني متسائلاً: هل يتناسب مع لون قميصي «البيج»؟ لأظهر لها أناقة رجل ستيني يحمل مظلة وينتظرها على باب مقهى تايتنك.

سأله ابن أخته متعجباً ومتسائلاً عن سر أناقته اليوم؟!..

نظر إليه مبتسماً وقال: كل مرة نتحادث «on line»، اليوم سأراها على المكشوف. مؤكد ستكون معطّرة بعطر فيرزاتشي، لتمنحني سحراً خاصاً، ولأكتشف سر أنوثة يفوح من خلف أذن تحمل قرطاً من لؤلؤ، كأنها «أليزابيت تايلور»، ستتوهّج أكثر لو تركت قبلة على يدها قبل أن نجلس معاً للمرة الأولى. أشعر بأناملها الرقيقة وخاتمها الماسي في كفي. ربما ألامس شعرها

القصير المتماوج. ثم أكمل بصوت مرتجف، لا بأس! لو كان فستانها عاري الكتفين قليلاً كي تعجبها هديتي حين أزيّن رقبتها بعقد من لؤلؤ أبيض، سأبقى معها طوال اليوم وسنقرأ معاً القصائد كما نقرأها «on line».

ناولني يا خالو عطري المفضّل، كي أشعر برجولتي القوية تقتحم أنفها، لتتسرب إلى حواسها، حتماً ستلتصق بجانبي، ولن تحب مفارقتي!.

– ما هو عطرك المفضّل يا خالي؟.

يا ولد «بلو دو شانيل» برائحة الليمون والكريب فروت، لتشعر بأناقتي الذكورية، مؤكد هي تعرفه لن تسألني ما هو عطرك المفضّل؟ سأرش منه قليلاً على قصيدة كتبتها لها خصيصاً بهذه المناسبة، وسنلتقي بعدها مباشرة، لنرتشف معاً رضاب المعاني المخبأة في صدري.

– هل رأيتها من قبل يا خالي عبر «الكام»؟.

– لا، بالطبع فنحن أكبر من الرؤية العنكبوتية، نريد الحقيقة على المكشوف «on line» مباشرة.

سمع صوت موسيقى أغنية «هيلين سيغارا»، «هل أنت تحبها» مما جعل الخلوي يهتز، كما اهتز هو مسرعاً ليلتقطه.

– يا إلهي أظنها انطلقت من البيت متوهجة لنلتقي. هات

مظلتي بسرعة، فالسماء ستمطر. سأنتظرها كي لا يبلّلها المطر وهي تدخل المقهى.

قرأ الرسالة التليفونية «حبيبي أنا في السيارة انطلقت نحو مقهى تايتنك، نصف ساعة وأراك».

– حبيبها أنا، حبيبها أنا، هذا يوم تاريخي.

مسح الحذاء، وأمسك بالمظلة، نظر في المرآة وقال: يا ليتني ارتديت قميصي «تيد لابيدوس» الأزرق لا بأس جيد هكذا..

كاد يقع وهو ينزل الدرج متوجهاً إلى المقهى، ليستعد لاستقبالها، وصل خلال ربع ساعة، وزوار المقهى يدخلون ويخرجون، بدأ القلق يتسرب إلى قلبه، بعد نصف ساعة مضت متثاقلة، يا إلهي أين هي؟ هل من سوء أصابها؟..

رنّ الخلوي، فخاطبها مسرعاً: أين أنتِ؟.

– أنتظرك في المقهى من نصف ساعة.

– وأنا أنتظرك من ربع ساعة.

– أين؟..

– أنا أجلس على طاولة عليها ورد أبيض قرب النافذة.

– لم يستطع الانتظار ليدخل. نظر إلى النافذة فرأى سيدة خمسينية سمراء تلف على رأسها شالاً بسيطاً، وسمينة جداً،

وقفت تلوّح له بيدها، فلوّح لها مذهولاً وتجمّد مكانه قبل أن تمدّ يدها وتسأله: أنت نضال؟..

- قال بسرعة: عذراً سيدتي، أنا جهاد وانطلق مع مظلته، ليغني مع «هيلين سيغارا».. «هل أنت تحبها»؟؟..

عنّاب...

بعثرت حبّات العنّاب على سريرها، وتأملت سطوع صحنها الذهبي الفارغ.

سألته! وهي تضع حبّة العنّاب بين شفتيها: هل لمست يوماً شوك شجرة العنّاب؟.

التقط بسرعة حبة العنّاب من بين شفتيها، فضحكت: منذ متى تلتقط العنّاب ببراعة من بين الشفاه؟.

بدأت ألتقطها منذ كنا في الحي القديم حيث استطعت القيام بالمهمة ببراعة.

تركت الصحن على السرير، ورفعت حبة العنّاب أمام الضوء تراقب لمعانها.

بدأت أشعر بالغيرة منها..

تنفّس بعمق واقترب منها، فاستقرت جفونها مسترخية، سحب ربطة شعرها، فانسدل برقة على بياض كتفيها.

قال وهو يضع حبة عنّاب في كفّها: أحب أن تفعلي هذا دائماً، ومسح كفيها ببعضهما واضعاً أنفه بينهما..

أحبّ هذا العطر جداً..

أنا لم أتعطّر..

استلقت على السرير، وحبات العنّاب تتدحرج من حولها، كأنها الكواكب السابحة في فضاء فضيّ يعكس عتمة بدأت تختلط مع الأبيض..

وضعت يديها تحت رأسها، فظهرت تموجات لؤلؤية تحركها أنفاسها القلقة، نظرت إليه وهو يمسك بشالها الشفّاف العنّابي..

لا يجوز أن تضعي الشال هنا. أقصد هنا على الأرض، كدت أدوس عليه.

هل ستهديني شالاً أسود وأنا في السبعين؟..

لمس الشال مجدداً بعد أن وضعه على جسدها، بل هذا سيبقى دائماً يليق بك.

مسحت دمعة نفرت من بين جفنيها، وسحبت الشال عن جسدها.. لا أحبّ أن تغطي جسدي بهذا الشال. هل تعتقد أنني سأفرح به بعد اليوم؟.

الأمر ليس كما تظنين، أحب رؤية الشال على أكتاف كل

النساء. هو يذكرني بحبة العنّاب حين التقطتها أول مرة من أربعين سنة هل تذكرين؟..

ذكريات مفرحة، ولكن لا أظن أنك تتمنى رؤيته على كتفيّ مرة أخرى.

بدأ يلتقط حبات العنّاب من حولها بهدوء، وضعها في الصحن الذهبي، واستلقى بجوارها تاركاً أنفاسه كنسمات مسائية.

حبّي لك سيكبر ويثمر كلما كبرت شجرة العنّاب التي زرعناها معاً.

انتبه، أشواك شجرة العنّاب حادة..

لا أهتم... سألتقط لك حبات العنّاب دائماً حتى وأنت في التسعين.

هل تعرفون ما هذه الكلمات؟..

تساءلت ما معنى كلمة «ريبورتاج»؟ وماذا تعني بلغة الصحافة العربية؟.. هل هذا سؤال في برنامج من سيربح المليون؟.. لا بد من استعمال الاحتمالات الثلاثة، يا إلهي أحتاج مساعدة صديق حتماً. لن أجد أوفى من صديق قديم يمتلك خبرة صحافي أسأله عن هذه المعضلة الصحفية، ما عليّ سوى فتح «إيميلي» ومحادثته ربما أجد الجواب المريح..

جيد، جهاد أونلاين.

مرحبا جهاد..

هلا عزيزتي.. كيف الحال؟

بخير.. هل يمكنني طلب خدمة منك؟

تفضّلي.. ضحى تأمرين، تتدلّلين..

ما هو الريبورتاج؟..

هههههه، هل يعقل ضحى تجهل هذا؟..

قرأت البعض منه، ولكن سأكتبه لأول مرة، قال: «هو شبه رواية يكون فيها السرد محبوكاً بمتانة لكن أولاً يجب أن تفكري بالحدث لتنطلقي منه».

وبعد؟..

فقط يا ضحى ابدأي هيا بكتابة ريبورتاجك وبدون هلع..

لم أقتنع بجواب كهذا خصوصاً بعد بحث وتدقيق بما هو موجود في كتب قديمة عندي. أن الريبورتاج لم يبرع بكتابته سوى كتّاب من أميركا أو فرنسا، بدأت رحلة البحث والتدقيق في القواميس. لم أجد أكثر من أنه «تقرير يعدّه أحد الصحفيين عن حدث ما» أو تحقيق إذاعي أو تلفزيوني أو سينمائي. فقلت: يا الله ما أنا بصحافية ماهرة لأكتب تقريراً عن حدث ما!.. لكن بداية يجب فهم ما هو الريبورتاج؟.. ولماذا طلب مني كتابته، وهو يعلم أنني مجرد كاتبة تحمل قلمها وتكتب من البيان ما يسحرها.. ؟.. أين أنت يا «عم غوغل»؟ مؤكد سأجد عندك الجواب اليقين.

ما أجملك!... يا «عمي غوغل» هيا.. ما هو الريبورتاج؟..

بعد قراءة موسعة في موقع ما فهمت أنه تقرير يحكي فيه الصحافي بصفة حيّة ما شاهده.. فتحت مخيّلتي أبوابها نحو الحروب ومراسليها، ومن ماتوا شهداء الصحافة لتغطية حدث ما.. افف.. لا أريد هذا، فتحت صفحة أخرى كتب فيها «هو أن

تكتب أشياء كثيرة في وقت قصير» لم أقتنع بهذه المقولة. فقد كتبت أشياء كثيرة في وقت قصير لكنها ليست ريبورتاجاً.

– هيا «عمي غوغل» هل من جواب آخر؟..

– هـلاااا.. بالكاتب سمير عطالله، ظهر وجهه الممتلئ متصدراً صفحة موقع أصوات ليسأل! كما أسأل أنا!.. ما هو الريبورتاج الفائز؟.. فضحكت وشعرت بالارتياح، لطالما لاحقت مقالات سمير عطالله، كما لاحقت النساء رشدي أباظة، وقرأت فيه ما لفتني وسأقتطف لكم منه بعض الكلمات: «الذي هو على ما أظن، أرقى وأصعب وأمهر الفنون الصحفية، لأنه يقتضي وضع الحد الأقصى من الإثارة في الحد الأقصى من الحقيقة، وإثبات الحد الأقصى من التفاصيل الصغيرة من دون إثبات تفصيل واحد لا لزوم له، ومزج المقال بالبحث، بالمقابلة، بالوثيقة». يا إلهي ما هذا أحجية إغريقية كيف سأستطيع فهم كل هذا؟..

هل أكتفي بمقالات أكتبها هنا وهناك؟ أو أنسى أمر هذا الريبورتاج اللعين؟.. كاد صدري ينفجر لأنني أشعر بتحدّي الريبورتاج هذا لي، لا بد أن أعاود سؤال «العم غوغل» عن ماهية الريبورتاج؟..

لكن ربما سؤال بعض الأصدقاء سيجعلني أفهم أكثر.

بدأت البحث في ذاكرة الخلوي عن رقم محمود، وهو

صحافي يعمل منذ سنوات في جريدة معروفة، لا بد سأجد عنده الجواب المساعد لأبدأ بكتابة الريبورتاج الحلم والمغامرة. رنين الخلوي يشبه رنين عقلي المتوتر الباحث عن أدلة يقينية بمعرفة طرق كتابة الريبورتاج. وبعد تفاصيل لا يسعني ذكرها الآن، جاء الجواب كالآتي: «الريبورتاج هو مرادف للدخول إلى عالم بكل ما فيه من أحداث يجب تفصيلها للقارئ»، زادني الجواب حيرة، بل تاه عقلي أكثر، وغرق في متاهة ريبورتاجية لن أخرج منها بنتيجة ورقية أنشرها في جريدة يبدو أنها تريد معجزة من كاتبة ما زالت في بداية طريقها الصحفي.

تساءلت: هل أراد رفض طلبي بذوق وجمال أدبي يصدر من شاعر له باع طويل في الكتابة؟ أين أنت يا سمير عطالله، سأعود إليك لأعيد قراءة مقالك للمرة الألف، فهو على ما يبدو الأفضل، لكن قاطعني «الواتساب» برنينه الهادئ.

أسرعت أناملي تنقر على الحروف، حين قرأت اسم مأمون، وبدون مقدمات كتبت..

– ما هو الريبورتاج يا روائي؟..

– هههههه.. هل تختبرين قدراتي يا ضحى؟.

– قطعاً لا، فقط أحتاج الجواب.

– هل من فرق بينه وبين الريبورت؟.

– ما هو هذا الريبورت المحترم أيضاً؟..

– إنه التقرير يا سيدتي..

– وهل الريبورت اسم الدلع؟.. إشرح أكثر لو سمحت يا روائي.

– ببساطة هو تقرير يغوص في حياة مجتمع أو طائفة معتمداً على التصوير والكلام، هذا على حد علمي...

– يبدو أنه معضلة يا مأمون حقيقة، دوخني.

– تريدين إعداده أم تعريفه؟.

– أريد معرفة كل شيء عنه لأقضي عليه بضربة قلم..

– صحفي أم تلفزيوني.

– صحفي يا مأمون، وهل رأيتني يوماً في برنامج تلفزيوني؟.

– الأمر بسيط، تنقلين الحدث كما يجري من خلال النقل، هو يعتمد كثيراً على تقديم العرض كفكرة من خلال حديث عادي.

– هل كتبت يوماً الريبورتاج هذا؟..

– حقيقة لا، لا أهتم لكتابة الريبورت..

– يا إلهي ازداد الأمر حيرة..

– يبدو أنك مرتبكة أتركك الآن..

– إلى اللقاء..

يبدو أنه أحسّ بالضجر، يجب أن أعود إلى «عم غوغل»، وفهم كلمات سمير عطالله، ولكن أرجو أن لا تصابوا بالضجر أيضاً. يقول سمير عطالله: «يجب أن يشعر أنك تعرف الطريق، وأنك لن تتركه (ولن يستطيع أن يتركك) في منتصفها فلا ملل، ولا ضياع، وأية حفرة ضجر تسقط فيها وتوقعه معك. أنت هو الـراوي، وأنت هو الدليل». أحسست أنه يجب أن أقرأ رواية «نظافة القاتل» للروائية البلجيكية «إميلي نوثومب». أحسست أنها تشبه الريبورتاج هذا بأسلوب سردها، ربما أستطيع بعد ذلك كتابة ريبورتاج.

تقول إميلي نوثومب: «عندما شاع بين الناس أن الكاتب الكبير «بريتكستا» طاش سيموت خلال أجل أقصاه شهران، تداعى صحافيون من العالم أجمع طالبين إجراء حوارات خاصة مع الكاتب الثمانيني..». ومن ثم أكملت عن تكفل السكرتير بالقيام بانتقاء دقيق لإجراء الحوار الخاص مع من يمتلك فن المحاورة، هنا تساءلت: ما الفرق بين رواية إميلي نوثومب وبين الريبورتاج، بل وبين فن الحوار؟ يبدو أن الريبورتاج يحمل كل هذا!...

قلت في نفسي: يجب أن أعتذر عن كتابة الريبورتاج قبل أن أجن لأن النظريات ملأت رأسي وما من ريبورتاج قرأته وأعجبني،

مؤكد الفشل سيكون حليفي لكن يا صديقي الريبورتاج تشرفت بمعرفتك، ولو لم أستطع الغوص في أعماقك لأكتبك، كما أكتب الحبّ في رسائلي.

في الحقيقة بعد كل هذا شعرت بحاجة إلى البكاء أغلقت كل كتاب أمامي كما أغلقت «العم غوغل» صديقي المخلص، وبدأت بالبكاء فشعرت بالراحة وأنا أمسح كل دمعة تتناثر على صدري بعد أن تتدحرج قاطعة مساحات وجهي الشاحب، وتذكرت أستاذي مايز، يا الله كيف نسيته وهو صاحب جريدة منذ أكثر من ستين سنة؟ كدت أقع مرتين وأنا أرتدي البنطلون الأسود من عجلة تسرّبت لأعصابي قبل جسدي، خرجت مسرعة دون تألق أنثى مكتفية بأقل أناقة ممكنة.. وبعد مشي متواصل وصلت مبنى الجريدة والحمد لله أنها في الطابق الأرضي لا أحتاج إلى مصعد أو «إتيكيت» أو انتظار، دخلت مباشرة، فوجدته جالساً كعادته أمام شاشة الكومبيوتر.

- أهلاً ضحى.

- أهلاً، أهلاً أستاذي.

- تلهثين لماذا؟..

- دون مقدمات، أستاذي مطلوب مني كتابة ريبورتاج، وهذا

تحدّ لنفسي أولاً يجب أن أجتازه بأقل خسارة ممكنة، والخوف يصارعني من البداية أريد معرفة ما هو تماماً.

– كعادتك دائماً، تخافين من لا شيء، فوبيا الكتابة.

أمسك ورقة صغيرة وضعها أمامه بصمت كتب عليها كلمات وناولني إياها.

أخذتها بسرعة وقرأتها. تجمّدت في مكاني وربما لدقائق عشر وهو ينظر إليّ، حقيقة أحسست أن تفكيري بدأ باستراحة غير معلنة ثم نظرت إليه مبتسمة، فتبسّم ولم يعلم مقدار ما أصابني من دهشة.

– ما بك ضحى؟.

– هذا هو الريبورتاج؟.. منذ أيام أبحث عن معرفة حضرته، فكانت النتيجة هذه الكلمات؟.

– نعم ضحى. يبدو أن ذاكرتك تحتاج إلى تنشيط، هذه الكلمات تعرفينها هي تكفي لكتابة ريبورتاج.

يا إلهي هذا درسناه، وكـان السؤال المهم في شهادة البكالوريا.. كيف نسيته؟..

هل تعرفون ما هذه الكلمات؟..

مَن؟.. أين؟.. متى؟.. كيف؟.. ماذا ولماذا؟؟..

تذكّرت مجدداً كلمات «إميلي نوثومب» في رواية «نظافة

القاتل»: «ألا تعتقد أن كل إنسان يغيّر نظرته بوعي أو دون وعي بعد انتهائه»؟.

تغيّرت نظرتي إليك يا عزيزي الريبورتاج، فلا خوف منك بعد الآن...

وبعد كل هذا ما رأيكم؟.. هل هذا ريبورتاج؟ وهل يستحق القراءة؟.. أم أكتفي بكتابة المقالات الفنيّة.. والقصص القصيرة؟؟..

زكام بائع الورد...

لمس بإصبعين فقط ورقة الورد المعطرة، ووضعها على الماء في وعاء من الكريستال مع شمعة تبث الضوء الحالم في الأرجاء، وكأنها تصارع ضوء النهار قبل أن يغفو، نظر إليها بعد أن ركع بحنو أمامها، سألها ما هي الزهور التي تتمنين رؤيتها؟.

– وجهك..

– حبيبتي أنت دائماً، لكن وجهي لا عطر له هو خارطة روح تائهة، هل تحبين القرنفل الخمري كي أداعبك بعطره الليلة؟.

– أحبّ عطر خلاياك.

– قصّ الأوراق من الورود التي يضعها على الطاولة أمامه، وكومها في سلّة من قشّ مزركشة بعد أن وضع تحتها ورقة سوليفان شفافة ذات بريق مائي. هزّ رأسه مبتسماً بخجل زاده ألقاً.

– لماذا الخلايا حبيبتي؟ هل يذكرك هذا بنمو الحب بيننا؟.

– فيه تزدحم عطورك وتتناثر كحبّات المطر على ورق الورد، بل تفوح منه رائحة ليل يمج الندى. تركت أناملها تسترخي قليلاً ثم أكملت قائلة: هل ستحضر لي القرنفل الليلة؟.

– تختارين الخلايا والقرنفل، حبيبتي غموضك اشتهاء لا ينتهي، حبّي، نحن نتهاتف بالأصابع، نسيانك هذا يجعلني أشعر أننا معاً فعلاً على سرير مفروش بالورد أو القرنفل.

– حبيبي نختار الخلايا لأنها تحتوي على حبر الجسد، وأجمل وردة هو وجهك لأنه يطل بملامح أعشقها، فأنت لي كتربة أحيا فيها. هل فهمتني الآن؟.

– مشى بخطوات ترتجف بعد أن وقف بليونة، والقلب يترنح. جلس على كرسي رافعاً رأسه نحو السماء يتأمل وجهها بين الغيوم.

– والـذي يفقد هذا الشعور، ويتصرف كأنه في حضرة جماد؟!.

– هههه حبيبي ذاك يشبه بائع ورد أصيب بزكام حاد.

– أضحكتِني.

– هل من لون جميل يليق بباقة قرنفل خمري سيأتيك على صهوة الحلم؟.

– الأسود الشفّاف.

– لماذا الأسود غلاي؟.

– أفروديت تحتاج زهرة قرنفل واحدة لتكتشف ذاتها، وتتأمل جمالها الطبيعي في ليل حقيقي يضج بكل عطر يفوح من بين الخلايا.

– إذا فياغرا الألوان هو؟..

– ظننتك ستقول إنك في انتظار رحلة مشوقة، ما بين الليل والعطر وأنامل تحلم بالحقيقة. سأرتدي الأسود وأنتظرك لأبدأ رحلتي الخيالية على متن «تيتانيك» مع بائع ورد مزكوم.

– ربما أستطيع الغواية إذا..

– أنا مستعدة، ولا أحتاج إلى الغواية..

– بسط القرنفل أمامه والدمع يختنق في عينيه، وبدأ بتنسيق باقات القرنفل تاركاً نضارة الورد تشع في حديقته، والليل يرخي أهدابه على الضوء في يوم تاريخي فعلاً.

خدش وعتمة

قال: فرج الظلام شديد السواد.

قلت: ليكن نافذة مشرقة نطل منها على الحياة.

حملت كتاب نافذة على الفلسفة، مع حرصي على رقّة لمسه كي أحافظ على صفحة فتحتها، ونافذة تظلّلها عتمة تبدو كأنها عين تغفو بين أجفان الضوء أو ثغر أسدل شفاه الصمت ليحجب لآلئ الحياة البيضاء، وحياء يرسم على الخدود حمرة تناسقت مع السواد.

- ما الفرق بين ليل وعتمة؟.

- تركت العينين مغمضتين، كي أفتح نوافذ مخيّلة امتلأت بعطر ليل يجذبني إليه، يضمني، بدفء شرايين قلق لا يغادرني لكنه يسحرني، ليل.. ليل.. كلمة أغرقتني بقوة عينين أشتاقهما.

- ماذا يعني لك الليل؟!.

- عينا حبيب أشتاقه..

– سؤال عميق له لجة بحر تتناحر أمواجه كما تتناحر مخيّلتي في رسم صورة معاكسة لروح لم تفارقني، أحتاج فنجان قهوة كي أستفيق من متاهة ليل كوني. لم أجرؤ على ترك الكتاب، ضممته إلى صدري ودخلنا المطبخ معاً، وضعته على الطاولة كي أصنع قهوتي، ركوة تركية مع فنجان بدوي يتأرجح بين أناملي وكتاب كأنه رفيق درب لا يفارقني، قرقرة ماء وبخار يتمدد يعلن غليان الماء، وقهوة تنتظر الذوبان، رغوة بنيّة اللون اشتدت في تماسكها ومقاومتها، أحسست برغبة لأتذوق زبد القهوة، مددت سبابتي وغمستها لكن رغبة شديدة تملكتني لأرسم عيون ليل وعتمة.

– هل ترغبين بالحوار حقاً معي؟.

– نعم، أنت تمتلك فن محاورة يروق لي.

– نظرت إلى زهرة عيد الميلاد وقد زادها الاحمرار جمالاً، وغطّاها الليل بقدسية تشكلت في رحم عتمة عانقتني لكنها تبدو كضوء شديد الخفوت.

– لماذا اخترت العتمة؟.

– لأنك اخترت الليل.

– ما بين ليل وعتمة، أنهيت مراسم أعوام في لحظة سنة أخيرة من حياتي، وبدأت بالحوار معك.

– نعم سيدتي، الحوار معك يأخذني إلى أماكن أرى فيها

إشراقة نافذة يزيدها الليل نضارة تبدو في محيطها، كأنها الشمس في عريها الملتهب.

– نافذة ترى منها جوهر زوجتك؟.

– لكن للأمر خصوصية مقدسة لا يجوز أن يخدشها حوار أياً كان.

– خدش! خدش! خدش!..

– أمسكت زهرة الميلاد وخدشت أوراقها، فسال منها اللعاب. تعجّبت ما معنى خدش! ومن يخدش أحاسيس طبيعة قدسية تتناغم سراً وعلانية، فنحيا ونرى الجمال الخلّاق، أحسست بدموع زهرة الميلاد على أناملي بعد خدشها، تشنجت أناملي، وتوترت زهرتي، فحاولت أن أمسح برقّة عليها، لكن خدشها أصبح كنقش هيروغليفي له تاريخه، زمانه ومكانه.

– نظرت إلى فنجان القهوة تذوقت رشفة لذعت لساني بحرارتها، فاختفت الرغوة الكثيفة لكن آثارها لم تترك شفتَيّ.

– ليل طويل تلزمه نافذة مضاءة.

لا تحاول، نافذتي يغمرها الليل، ويهجرها الضوء، وتغفو الفراشات على أجفانها، بل تكاد تختفي في الظلام.

– يبدو أنها من سراب...

– إفتح ورقة بيضاء، ستراها مشرقة مزدانة تنتظرك.

– أخاف خدشها.

– إذاً سأخدش عتمة ارتسمت على فنجان قهوتي.

– سكبت ما تبقى من قهوة في الفنجان على الورقة البيضاء، فسالت كمياه بركانية لزجة وارتسمت وجوه أشتاقها، وعيون هجرتها، وقلب يحيا بمن فيه، وخاتم لن أرميه، وليلة مرة بوداعها الأخير، وعند الشروق جعلكتها، ورميتها من نافذة خدش الضوء عتمتها.

أنثاه....

نور خافت بدأ يحيط بعيون السماء، والغبار ربيعي يحمل لقاح زهور تحسسية تجعلنا نشعر أنها فينا، وهي تتعالى مع هواء يضج ليمحو كل كآبة نفس أشعر بها، فلا مكان لي كي أجلس على أرجوحتي، «ماريو» كطيف حبيب مجنون ينتظر حبيبته وهي تتّكئ على الأريكة. «مي» دميتي التي ترافقني في المسرات والأحزان! جلست على الكنبة الصغيرة، فحنى «ماريو» رأسه وكأن غيرة انتابته. شعرت بجريان الدم في عروقي والزهور من حولي. حفيف أوراقها يشبه حفيف قلم رصاص يكتب أجمل كلمات على أوراق حريرية...

تأمّلت طيف القمر، وكأنه يرسل غباراً ضوئياً يُعيدني إلى بداية خلق.. تـراءى لي طيفه الطويل بلون قميصه البرتقالي وحذاء هتلر الأسود الكبير، كأن خطاه تتسع ليصل إليّ فيجلس قربي أو قبالتي.. مشى أمامي كنخلة شامخة، كقمر وسط عتمة

أضاءت شرفتي لتجعل كل شيء يبدو سراباً ربما! لامس أنوثتي بحيوية تفيض منه، لعل عطره الغريب لامس خدّيَّ. حضور حالم لرجل تفوح منه شهوة مع بريق حزين في عينيه. لم تهب الرياح الخمسينية إلّا ساعة واحدة، وكأن الطبيعة أقفلت أبوابها لتمنحني لحظات تأمل في وجه عصفور طليق حسبت أنني لن أضعه في حديقتي يوماً..

هكذا أناديه عصفور ما بين المداعبة والحقيقة فنحيا لحظات كأنها لحظات كونية، تحملنا على أريج حياة جميلة ليشكو كل منّا فرحه أو ألمه. نتبادل الكلمات كما نتبادل القصص، وكأنه بين عناده ودلالي يشعر بتيه أكثر!.. ربما الصداقة بين الرجل والمرأة تتقيّد أحياناً أو ربما هي شيء مصطنع نختبئ فيه، لأن الأنوثة تزدهي والرجولة تفوح رائحتها من قوة كلمات تطير كما حمائم الحياة مع انفلات في حرية نحن من يُقيّدها..

صديقان حميمان؟ أم عصفور ووردة في حديقة الحياة؟! نبوح بأسرارنا في لحظات ضيق، يشرب فيها كأساً من شراب عصير الرمان مع الحامض، ليتأكد أنني لن أتسرب إلى روحه كي لا يعترف أن الأنوثة كفراشة ملونة، تبث عطرها لتجذب الذكر عن بُعد قد لا يتخيله عقل. شعرت كأنه يغلق نوافذ أحلامه وأبواب قلبه، وكأنه يترنّح أمام الأنوار التي تسطع من سيارات مارة،

فتنحني غبرَة ضوئية تمنحني رؤيته أكثر، فهل يعترف بجنونه وحبّه للنساء؟ ومشاريعه المستقبلية ومواعيده التي كان يغلفها بكبرياء رجولية مصطنعة..

أغلقت نافذة أحلامي وأمسكت بـ«ماريو» وضعته على الكنبة، ضممت دميتي وحاولت النوم، تقلّبت على أرجوحتي كزهرة غاردينيا عطشى والنوم يجافي الجفون، فأية علاقة تربطه بالنساء؟ أشعر كأن المرأة صحن طعام يومي لذيذ يتناوله بشغف. ثمة خوف ينتابني وهو يتكلم عن المرأة الأولى في حياته، وكأنه هارب لا يتوقف من زمان إلى مكان امرأة يعانقها، وكأنه في كل مرة امتلك عرش قلب جديد. سألته ذات مرة ماذا تأكل قال لي: «فلافل وبيض وعمبة»، يا إلهي من يتناول فطوراً كهذا في صباح جميل؟! رآني ذاهلة فضحك ضحكة رنانة كنت أسمع صوتها، سألته أي شيء يجعلك تميز الأنثى التي تجذبك إليها؟ قال بسرعة وكأنه يريد الإفلات من أسئلتي كي يعيد طيرانه بعيداً: الحركة والرغبة والأنوثة الطاغية، لكن أرجوك، إمضي بي حيث لم تمضِ بي أية امرأة..

– لماذا ذكرت امرأة وأنا أكلمك عن الأنوثة؟.

– لأن الأنوثة في المرأة شيء عظيم.

– لحظات كانت تشعرني بالسرور، وأنا أحدّثه رغم المكابرة

بيننا، ورغم التأرجح والتذبذب بين قساوة في كلمات وهمس في مواضيع نقاشية. إلّا أننا كنا نحلّق في فضاءات يرسمها لي بجناحيه، فأنسى أحزاني وهو يطير حبّاً بالنساء. لعل الزمن استقر ليكتب قصصه التي أحبها ليجعلني مقتنعة أن امرأة واحدة قد لا تكفي رجلاً أحياناً...

في كل مرة أحدّثه أشعر برحابة صدره وقلبه الحنون، وفكره العنيد فتمر الساعات كأنها لحظات لأعاود الغياب عنه لأيام وأيام كي لا يتعلق بأوهام نفس افتراضية تنفلت من جسد متعب، فأفقده وهو عصفوري الوحيد في الحياة، فتغريده في ذاكرتي السمعية أنشودة لحظة جنون، وجمال معرفته تودع أي رحيل قد نصاب به يوماً، لأن المعرفة التي ولدت يتيمة تجعلني على يقين أن الصداقة بين المرأة والرجل لعبة ابن آدم وابنة حواء، وأنه لم يكن حبيبي يوماً وأنا لم أكن يوماً أنثاه...

الشيخة...

الخريف يتيم ونهاراته صفراء كأوراق الشجر المتساقط في فسحة بيتها الوحيد؛ فالحجر الأسود المكحول يكاد يعلن الحزن في مساء لا أنجم فيه، ثمة خطوات تمشي كأنها تهمس للأرض بالكلام عن صمت الشيخة خدّوج. هكذا هزت الرياح الأشجار، وكأنها ترتعد خوفاً من القادم إلى بيت الشيخة خدّوج...

تبدو عيناها تائهتين في المدى البعيد تتأمل الليل بلون ثوبها الأسود الطويل الذي يلفّها كصرّة من قماش، وعصاها تكاد تلامس رأسها، غير أنها تتكئ على حجارة رصفتها كوسادة كي تستريح عليها. عيناها وأنفاسها تكاد تتوقف، شعرت بالخوف والرهبة وكل شيء حولها كتماثيل من جذوع أشجار يابسة تقف كبشر من زمن العصر الحجري، وما من نسمة جعلتني أشعر بوجودي في مكان جعلني أتراجع عن زيارته غير أن صوتها اخترق الصمت القاتل... أتخافين؟..

ارتعدتُ، شعرتُ كأنها قرأت أفكاري، اهتزت الأرض بي، وهي تحاول القيام، تمسك عصاها التي ارتجفت تحت يدها، وكأن الفجر يقترب مني ليمحو عتمتي التي جعلتني أشعر بالخوف لأول مرة وهي تقترب مني، أتنظرين.. هات الإبريق..

وشعرت بطرف عصاها يلامس قدمي، وكأنها أشعلت خوفي.. لا تكذبي مرة أخرى وقولي له الحقيقة؟.. تجمّدت مكاني، هل أنا ميتة؟! وروحي في البرزخ مع هذه المرأة العجوز.. كانت نفسي مثقلة بالحزن وتلعثمت الكلمات في داخلي، لم أستطع النطق، اقتربت نحوي وناولتني كوباً لا أعرف ما فيه، وبلهجة قاسية قالت: اشربي.. امرأة لن تكبر، أنتِ تحتاجين عصاي هذه كي تورق على جسدك. سأؤدّبك.. للحظات شعرت أن قدمي غرزتا في الأرض، وأصبحت كشجرة لم تجد ريحاً تؤنسها..

ضربات قلبي تكاد تتوقف، وكأنها تسابق روحي التي ركضت بعيداً.. أعرف أنك تحتاجين إلى الكلام معي، وأنا أنتظرك منذ سنين هنا...

تنتظرينني أنا؟..

نعم أنتظرك منذ سنين أنت أنا، وأنا أنت وابنتي ستكونين..

ما هذه؟ أحجية؟..

لا.. أنت ابنة لم أُنجبها، بل أنجبتها الحياة لي، وأنا امرأة كما ترين معزولة عن بشر تتأفّف وتضجر من عجائز كصناديق كنوز مرمية في قاع بحر ولا شغف بهم لرفعها...

لمن أقول الحقيقة؟؟؟.

لمن في نفسك كنفسك؟ لمن أنت فيه كحجرة راكدة في قعر ماء؟ لمن أحبك كبرعم ورد ولم تُحبّيه؟.. أتبخلين؟..

والحبّ لا نسعى إليه! إنما هو خلسة يأتي، قد تهرب المرأة من نفسها لكن لا تهرب من قدرها، هذا قدرك. أتقصدين زوجي؟..

لا... لا أقصد زوجك، فهو زوجك في الدنيا إنما أقصد زوجك هنا..

ماذا تقولين؟..

منذ سنين وأنت تعرفين ذلك، فلماذا تكذبين؟.. شعرت بدمعتي على خدّي كيف اخترقت هذه العجوز تفكيري، وعرفت ما لم أعرفه أنا؟.. أو ما أخفيه حتى عن نفسي؟..

ستلتقين به.. ثم مشت كقنفذ يتكبكب في مشيه، وجلست في مكانها، وشيئاً فشيئاً شعرت برفيقتي دنيز تهزني، ماذا تفعلين هنا؟؟.. هذه الشيخة خدّوج عجوز مجنونة لا تتكلم مع أحد؟.. نظرت إليها، وهي ممدّدة أمامي على المغسل وطيبها في أنفي،

كأنني في رحلة حلم لن أستفيق منه، وكأس الماء في يدي لأنهي اغتسالها قبل تكفينها والنسوة من حولي يُلَمْلِمْنَ المناشف المبللة..

وجه ملائكي رغم التجاعيد المرسومة على طبقات جلد متراكمة، وقفت أمامها وكأنني فتحت نفقاً بين الدنيا والبرزخ، لألتقي فيه والخيوط تتشابك في ذهني لينحسر الزمان في كلماتها قبل أن تستلقي في قبرها الذي اختارته، وغاصت فيه في برزخ جعلني ألتقيها لألتقي نفسي.. والنسوة يحكين عنها وكأنهن يعرفن تفاصيل حياتي أنا... هي من اختارت العزلة لتكون معه دون سواه حتى الموت..

وهْم واستحضار...

أجهل كيفية التفكير في الأشياء، ونحن في خضم الحياة نُطلق صفّارة الوهم. كلما أدركنا التعب أو تسرّب اليأس إلى الروح التوّاقة إلى الحبّ والسلام. إلّا أن التاريخ الذي يكتبنا يأبى إلّا الحضور في ذاكرة تعتمد على الاستحضار، وكأننا نسافر عبر الزمن نحو المستقبل أو ربما نحو برزخ من نوع حياتي نعيش فيه بدقة نبحر فيها نحو الأنا. هذا ما جنحت به نفسي ونحن نلعب لعبة الأصابع، والروح تتأرجح بين وهم واستحضار، والجسد في استرخاء يزداد تعبيره كلما تغلغل المعنى في الفكر المتلاطم.

وقال: هل تخافين الجهر بالحقيقة؟..

- لا أدري يا خليل، ربما ما من حقيقة أعيشها، لأنني في حلم مستمر، وربما هو الوهم الجميل الذي يجعلني في غاية الفرح.

- معظمنا يا ضحاه يأتيه الحبّ أثناء الوقت الضائع، والزمن الحرج شبيه بمن يربح جائزة مالية وهو في غيبوبة.

– ربما لأن الحقيقة الكاملة غاية لا تُدرَك.

ردّ بعد دقائق جعلتني أنظر إلى شاشة الخلوي، وأنا أتأمله بصمت الثائر والملاك والوحش والأمير.. دقائق منحتني لذة استرجاع حكايا تشد من أزر الخيال وتعيد برمجته، فتشعر النفس بلذة الحلم أو الحب.

– هل هذا وهم أم ذاك الحب؟.

– ذاك ليس بالحب، لأنه يتكون من حاجة داخلية عارمة نحو الآخر، وتموت بعد فترة لتصبح ذكرى. لأننا في الأعماق نخوض الصراعات التي تضج بالمشاعر الحقيقية التي تنبع من الذات وتفتقد التفاعل. لهذا سأعرف الحقيقة.

– ستندمين على الحقيقة لو عرفتها كاملة. لأنك مشكلة على من يعيش معك بين الأسطر. أما أنا فأفتخر بالحوار مع هاربة واهمة.

– هل تكلّمني ببلاغة مقصودة؟ أم لأنني عصيّة على التاريخ الأحمق الذي يهزمه الزمن، فيتأخر ويتقدم ويترك آثاره في الذاكرة؟!.

– من أين يأتي الحب؟..

– يا خليل لست أستاذة في الحب لأناظر فيه. لكن ما بي هو نبض حبّ يعشش في أعماقي لا أعرف ماهيته. إلّا أنه يحيا ويزداد

كلما كبرت عاماً، وأنا على قناعة أننا نقتل الحبّ أينما وجدنا، لأننا نخفي الحقائق عن الآخر ولا نبوح بالحقيقة الكاملة.

– لا أدري لماذا في هذه الليلة أودّ مناداتك يا أختي؟.

– هل تفتقد توأم طهارة صادقة؟.

– ربما! إحساسك هذا جزء من الحقيقة التي نهرب منها أو ربما كما نقول إننا لم نعد نمتلك إلّا صنع سفن الوهم أو الاستحضار.

– أنتِ بالوهم وأنا بالاستحضار.

– أتحرق لألمس ملامحك أو أرى مسحة العمق والحزن في عينيك، كما أتمنى الغرق فيهما أنثى من وهْم.

هذا هو الوهم والاستحضار؟.

قلت كلماتي وغفوت على أرجوحتي التي تجعلني يقظة بين الغفوة والـ،...

أخطأت برقم ما سيدي!...

فتحت له الباب الصغير كي تضع له بعض ما يساعده على البقاء حياً. تسلّل الألم إلى قلبها وهي تراه هزيلاً حزيناً على غير عادته. أغراها حين رأته أول مرة وهو يتنقل في خفّة متناهية، وقد سحرها صوته الرائع!. فتحت نافذتها قليلاً كي يتسلل الهواء إلى غرفتها، فتشعر ببعض النسمات... صدرها يختنق من ذكريات مؤلمة والنفس تكاد تختنق من القلق والخوف والوحدة. تسارعت خطواته وخربشاته، رفرف في فضائه الضيق الذي منحته له. نظرت إليه من بعيد وضوء الفجر يسترسل في تمدّده ليمحو سواد لونه... بدأ لمعانه المذهل في عينيها من جديد. اقتربت منه أكثر!! عادت وفتحت الباب الصغير، ومدّت يدها لتلامس سواده وتداعب عينيه الحزينتين. كانت قد فرشت له بعض أوراق الزهر والشجر كي تمنحه بعض الحياة من طبيعة فقدها خلال سنوات عاشها معها في غرفة واحدة. بلّلت شفتيها ببعض الماء فظمأ

الحياة المرّة التي تعيشها جعلها كأرض صحراء، لم يتم اكتشافها بعد.

عادت بها الذكريات إلى أيام ربما نسيت تفاصيلها كي تشعر بكبرياء أنثى، وهي التي لطالما أحبّته أكثر من نفسه. تمهّلت قبل أن تتخذ قرارها حين رفرف بجناحيه كأنه سيطير لكن القفص الصغير بات كقبر أمامها تدفن فيه أوجاعها كي لا تحيا من جديد. تأملت ضوء الفجر من جديد وقد تراءى أمامها حبيبها، وهو يلامس شفتيه بكفّه، ليودعها قبل أن يسافر متمرداً على وضع اجتماعي مرير، ليحقق معها حلمه ويشتري بيتاً صغيراً يكون أساس عشّهما الزوجي!.

شعرت أن الضوء يشاركها عتمتها التي تحياها حين قررت البقاء وحيدة دون زواج كي تنتظره حتى آخر العمر، وكأنها هاربة من قدر كتبت هي منه بعض سطوره الضائعة في حياة لا نملك إلّا أن نحياها بأمن وصلاح. عمّ السكون للحظات في نفسها، وكأن فكرها بات مغيّباً عن روحها...

فلا البلبل سيؤنس وحدتها، ولا الزمان سيعيد إليها حبيبها، ولا الحب الذي تنتظره سيغمرها ليعيد تلك القبلة على كفها... بدأ البلبل شجوه الحزين كأنه سيمفونية حياة ستبدأ من جديد. مدّت يدها داخل القفص، حملته في كفها، لامسته مودّعة. لا بد أن

تواجه نفسها بالحقيقة المتمردة في داخلها، فكيف تمتلك شيئاً هو لا يرغب في البقاء معها؟. مدت له يدها، رفعته بقوة بعد أن فتحت نافذتها أكثر لتتسع له كي يطير في أمان إلى حيث يريد. أوقفت قدميها عن الارتجاف وأطلقته... طار مسرعاً وكأن المسافات التي تخافها بدت كأنها خطوط ضوء فاصلة بينها وبين نفسها. مسحت حبيبات العرق عن جبينها وأمسكت بقائمة سريرها وتهاوت على فراشها باكية. حاولت أن تستعيد ذكريات وداع مشابهة لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تعيشها في داخلها المتوجّع. لفّتها قشعريرة كأنها بداية حمّى شديدة القلق. تسرب شعاع الشمس إلى غرفتها، ورنين الهاتف لا يتوقف، مدّت يدها والتقطته لتضعه على أذنها، مسحت دمعها حين سمعت همسه يداعب سمعها: حبيبتي كم اشتقت إليك سامحيني.

من أنت؟...

خالد، وهل يوجد حبيب سواي؟!..

بكت مجدداً وشهيق أنفاسها يتسارع!!!

هل تسامحينني؟..

صمتت في ذهول والألم يعتصرها حين شعرت بالبلبل يحط على سريرها، وبدأ بالقفز حولها وهو يتباهى بالطيران من زاوية إلى أخرى في غرفتها. ضحكت ضحكة شعرت أن هاتفها الخلوي

يهتز في يدها. قالت: أطلقته إطلاقاً يسيراً، والألم كان كبيراً وها هو قد عاد ليرقص لي وتغريده أصبح أكثر جمالاً، لن أضعه في القفص مرة أخرى.

حبيبتي ما بك هل أنت هدى؟..

لا لست هدى.. يبدو أنك أخطأت برقم ما سيدي.

توكي....

نظرت إليَّ شاكية باكية، ودمعها ينهمر على خدّيها كأمطار شهر كانون البارد. إلّا أنها تكاد تشتعل من الغضب رغم الشحوب الظاهر في عينيها الغائرتين؛ فالسواد الفاحم حول العينين المكحولتين يشبه الحجر الأسود من شدة البكاء. جلست بعيدة عني، مسحت فمها قبل أن تبدأ بقضم أظفارها، وهي تهتز وترتعش من شدة الحزن والتوتر وصوتها يئن، محاولة كتم أنفاسها علّها تهدأ.

بدأت الدهشة تقتلني من سلوكها المفاجئ هذا، فأصابعها تكاد لا تهدأ من الدخول إلى فمها والخروج منه!.. وكأن قضم الأظفار فطورها الصباحي المعتادة عليه. وقفت أمامها وأمسكت أناملها، فوقفت وارتمت على صدري، وهي تجهش بالبكاء. نظرت إلى المحارم الورقية البيضاء التي تكومت على الكنبة، وقد اختلط سواد الكحل مع البياض النقي، فضحكت لا شعورياً. إلّا أنها ابتعدت عني بنفور وغضب وقالت:

– هل تسخرين مني؟..

– لم أفهم ولماذا أسخر منك، إنما أضحكتني ألوان «الماسكارة» المتفحمة على المحارم الورقية، وعلى جفونك أيتها الفتاة؟.

– تنفست وتراخت بعد أن جلست مجدداً على الكنبة، وأمسكت بسلسلة أخرجتها من جيب قميصها الكتان، وأجهشت بالبكاء من جديد.

– ما بك يا بنت؟..

– ما عاد يقبلني كما كان يفعل كل يوم. أفتقد لدغدغة خدّي، ومداعبة أصابع قدمي ليلاً وعند الصباح.

نظرت إليها نظرة ثابتة بعد أن توسعت حدقات العينين من دهشة لم أتمالك نفسي من رسم معالمها على وجهي، وانفجرت ضاحكة وهي تنظر إليّ، وكأنني سأقدم لها حبل النجاة.

– أتبكين من أجل هذا في صباح مشرق، ونحن في رحلة استجمام وراحة، بعيداً عن الضوضاء، لكن نحن وحدنا في البيت منذ أيام، فكيف سيقبلك كل يوم؟ ومن هو؟ من يكون؟.. هل هو نجم الدين ذاك الرجل صاحب قطيع الأغنام؟.

استدارت بسرعة ونظرت من النافذة إلى البستان، وكأنها تبحث عن شيء ما! بدا على وجهها الخجل رغم احمراره، كما

بدا التورم والانتفاخ في عينيها، لكنها نظرت إلى السلسلة ويدها ترتجف حتى أحسست كأنها سيغمى عليها... ساد الصمت كما ازداد استغرابي لسلوكها المفاجئ، إلّا أنني لم أستطع الكلام وحافظت على الاتزان قدر المستطاع.

– اشتريت له هذه السلسلة رغم أنني لم أشعر في البداية بانجذاب نحوه. أما الآن فهو شريك حياتي، بل هو توأم روحي، وأعتبره فرحي وكل ما تبقّى لي في هذه الحياة، لكن ماذا أفعل الآن؟... وقد بدأت تغيّراته العاطفية نحوي تنكمش يوماً بعد يوم؟.. ظننت أنه مريض، أخذته إلى الطبيب ولم يجد به علّة، بل قال لي إنه بصحة ممتازة، لكنه يثير جنوني بأفعاله هذه.

حقيقة شعرت بالحزن لحالها، فالحب في الحياة لا بد من تغيرات تطرأ عليه مع مر الزمن، فهو كالموج تارة يعلو وتارة يهبط، لكن تساءلت بيني وبين نفسي ما الذي يذكّرها به في هذا الصباح؟ أيعقل الاشتياق؟ أم الإحساس بفقدانها له؟..

استمرت بقضم أظفارها والصمت لا يخلو من أصوات زقزقة العصافير في الخارج، وحفيف أوراق الشجر كأنه همس أو وشوشة رومانسية في أذن الطبيعة الريفية.

أحسست بالتوتر الشديد يتملكني، فوضعت حبة شوكولا مـرّة في فمي، وبـدأت أتذوقها بصبر وأنـاة، وأنـا أنظر إليها

والابتسامة لا تفارقني، فربما تساعدها ابتسامتي على البوح أكثر. حملت «البونبونيير» الكريستال ووضعتها أمامها، فربما تهدأ لو تناولت قطعة من الشوكولا المرّة. لكنها عادت إلى البكاء بشكل هستيري.

– أخبريني ماذا أفعل؟ كيف يمكن أن أعيده كسابق عهده معي؟.

– يبدو أنك مهملة له، وأنانية في تصرفاتك معه، هل تداعبينه كل يوم كما يفعل؟.

ملأتها الدهشة والاستغراب وفتحت فمها، وكأن الكلام وقف في حنجرتها ورفض الخروج. إلّا أنها قالت بسرعة: هل يعقل يا صديقتي أن أفعل هذا معه كل يوم؟.

– نعم، وماذا في هذا، ألا تحبينه؟.

– نعم أحبّه، هو رفيقي الوحيد في الحياة ومؤنس وحدتي. هو لا يفارقني، ألامسه، أداعبه، أحنّ عليه، أطعمه، أضعه بين أحضاني دائماً، أتنزه معه.. ألا ينفع كل هذا يا ضحى؟.

– في الحقيقة هذا ينفع كثيراً، لكن ربما هو مغرم بفتاة أخرى؟.

فغرت فاها وكأن ما أقوله غير مفهوم، أو يحتاج إلى ترجمة. أكملت كلامي معها عن الحب والقدرة على التناغم مع الآخر إلّا

أن الاستغراب لم يفارق معالمها، فسألتها: من يكون هذا الذي أبكى صديقتي في يوم جميل كهذا؟..

- إنه توكي يا ضحى..

لا أدري حقيقة ما الذي أحسست به، إلّا أنني مسحت أنحاء الغرفة بنظراتي بحثاً عن توكي هذا، لأرميه في الخارج، قبل أن أسمع نباحه المزعج في هذا الصباح الذي لا يُنسى...

وسواس...

لم يمتنع عن تصويب نظراته نحوي في المرآة، وكلما استرقت النظر من خلف زجاجات نظّارتي الشمسيتين الرماديتَيْ اللون، اصطدمت نظراتي بعينيه المتفحّصتين، إلّا أن ذلك لم يمنع حواسّي من الإحساس بالجمال من حولي، فرائحة الأرض المُبلّلة بالمطر كانت أشبه بجرة مملوءة بماء عذب من نبع صاف.

تنحنح أكثر من مرة محاولاً الكلام معي، إلّا أنني كنت ألتفت يميناً أو يساراً كي لا تلتقي العيون، فأنا ما عدت أنظر في المرآة الأمامية غير أني أحسست بمحاولاته الفضولية لمعرفة شيء ما. لكنني تجاهلت حركاته هذه فرُحتُ أتأمل الأشجار المغتسلة ذات الألوان الزاهية، وكأن المطر جعلها في فصل ربيع استثنائي.

ما بين الخارج والداخل تناقض مهيب، فالمقاعد المهترئة تكاد تئن من برد لفح خدّي، دقّقت جيداً بشكل رأسه من الخلف، فالشعر الزائد حول رقبته يبدو وكأنه ينمو مثل أعشاب ضارّة،

وما من أحد حاول إزالتها، كما أن رائحة التبغ المحترق جعلتني أفتح النافذة أكثر، لتدخل النسمات كعطر يغطي على رائحة تبغ محترق. حافظت على صمتي وأنا أتفحص تليفوني الخلوي، بعد أن همس برنّاته الرومانسية، فتحت الذاكرة الخلوية، وأخذت أتفحص المعلومات التي أودعتها فيه، بحثت عن السماعات في حقيبتي الصغيرة، لكنني لم أجدها، فوضعت الخلوي في وضعية «صامت».

قال بصوت عال: إنه الوسواس.

لم أرغب بالكلام معه، ربما أحس أني لم أسمع، فرفع صوته أكثر أو بالأحرى صرخ قائلاً: إنه الوسواس.

– عفواً ماذا قلت؟ لو سمحت لم أسمع جيداً.

– الوسواس.. الوسواس.

– ماذا تقصد يا رجل؟.

– كل الناس اليوم «ملتهية» بالوسواس.

قلت في نفسي يبدو أن الرجل قد جنّ أو أنه مصاب بهبل جزئي، أخذت نفساً عميقاً ونظرت من النافذة إلى الأرض المبللة في شـوارع طرابلس. كنا قد اقتربنا من سوق الخضار حيث ارتفعت أصوات الباعة مع ضجيج الازدحام الخانق، فرفعت زجاج النافذة إلّا أنني تركت النظّارات الشمسية رغم الطقس الغائم في الخارج، قال:

- «كنا زمان ما نحس بالضجر، لأنه كل ما طلع حدا من الركّاب نحكي معه ليوصل، اليوم كله ملتهي بالوسواس فوق الفقر في ضجر أوف دني آخر زمن»!.

بدأ فضولي بالفوران، وكأنه غضب اشتعل في رأسي، إذ لا بد لي من معرفة ما هو هذا الوسواس المزعج الذي يعانيه هذا الرجل!.

- ما هو هذا الوسواس يا رجل؟.

- «لا أعرف! في البيت زوجتي يأخذها الوسواس، أولادي كل واحد منهم «ملتهي» بالوسواس، بروح للدكان لأشتري بعض الأغراض أيضاً يمسكون بالوسواس.. لولا الراديو كنت اختنقت بهالعالم».

أصابتني دهشة وحيرة، يا إلهي! أحسست للحظات أنه يتكلم لغة سنسكريتية غير مفهومة، فقلت له: ماذا تقصد بالوسواس؟! هو الذي يوسوس للنفس؟.. هل يعقل أن الكل يعاني الوسواس؟.

- «نعم يا ستّ الله وكّيلك كل واحد بيطلع معي عيناه بتليفونه، وبتلاقيه بيضحك لحاله مثل المجنون أو بكشّ وبيظهر الحزن عليه فجأة، حتى مرتي بكون عم أحكي معها وبتهز برأسها لي بس خلص حكي بترجع بتقول لي شو قلت يا جابر؟»...

- يا رجل أرجوك اشرح لي عن هذا الوسواس؟.

– «هيدا اللي بيحكي مع هالناس المجانين على التلفون، شي بيجنن والله».

– تقصد «الواتساب»؟.

– «شو عرّفني شو اسمه، بعرف أنه وسواس بوسوس للناس، وبيسكتوا ما بقى حدا منهم يحكي».

شعرت بوسواس داخلي جعلني أضحك بصمت، وأنتبه لحكمة رجل منح «للواتساب» صفة الوسواس.

لأنه، وكما يبدو، قد تحكّم بي أيضاً، بل وسرق مني متعة التأمل الكاملة بعد أن وصلتني محادثة اضطررت للردّ عليها بأنامل باردة، وعقل مشتّت فقال لي:

«أستغفر الله العليّ العظيم.. شو هالوسواس أخد عقول الناس».

إبتسمت ابتسامة مخنوقة بعد أن أشعل سيكارة اضطررت بعدها لفتح النافذة، ومتابعة تأملاتي لزحمة السير الخانقة بدون وسواس!!.

سياسة إقليمية؟

رميت الدمية وأمسكت يده بسرعة حين رأيت بدلته الزيتونية تفوح بالاخضرار، لكن يدي تحسست تلك الأنامل الناعمة الملمس من الداخل والخشنة والقاسية من الخارج، حتى رؤوسنا كانت تطقطق مع بعضها البعض ونحن نتلهف للخروج من الملجأ المعتم؛ فالشمس كانت معجزة، لأننا لم نرها منذ أيام، كما أن طعم البطاطا المهروسة بقي هناك قبل أن ننطلق مع صاحب البدلة الزيتونية إلى الخارج، والناس يتدافعون من أمامه ومن خلفه كأننا في يوم حشر لا مثيل له. ربما! تغفو الذكريات إلّا أننا لم ننس تلك الحارة الحنونة، ورائحة ترابها المجبول بالدماء، وبشهداء لا أزال أراهم أمامي كلما أسدلتُ جفوني لأحاول نسيان المعارك الحامية التي كانت تنتهي باتفاق هدنة مدفوع الثمن، لأن الأرواح في هذه الحارة العجيبة تشبه تلك الأرواح المعبأة في قارورة تفوح بالمسك، كما في رواية العطر لزوسكيند، ولكن سرعان ما نهدأ ونعود إلى البيت واللعب مع أولاد الجيران.

لا أزال أذكر علي، ويوسف، وخضر، كانوا معنا في ملجأ واحد، والرصاص لا يفرّق بين علوي أو سنّي، ولم أعرف أن الجارة «أم خضر» هي من الطائفة العلوية إلّا بعد أن احترقت بيوتنا جميعاً ورحلوا إلى قريتهم في سوريا. لكن الرصاص استمرّ كعادته رغم أن الحارة خاوية من الأحياء ومليئة بالشهداء، وتلك الحكاية ما زالت تُروى من يوم ليوم، وكذلك أنين الرصاص الذي ما زال يحكي قصة أطفال أصبحوا بعمر الكهولة، مات منهم البعض، والبعض الآخر غادر إلى سوريا، هاجر قسم منهم، وآخرون حملوا السلاح ليحرّروا الحارة ويعيدوا البناء. إلّا أن سالم الطفل الصغير المشاكس كان يجمع الرسائل منّا جميعاً، ويحتفظ بها داخل الملجأ الذي كنا نختبئ فيه بعد أن ماتت رفيقتنا منتهى متأثرة برصاصة قنّاص تركت بصمتها الإجرامية في رأسها، ونحن ننتظرها لنذهب إلى المدرسة الابتدائية النموذجية، ولم يستطع سالم النسيان، لأن منتهى كانت تمسك يده دائماً حين تخاف من المشي على البلاطة البيضاء الكبيرة حيث كانت تنتصب أراجيح العيد.

انتفضت خوفاً كما انتفضت منتهى وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، تاركة ابتسامتها تعكس الفرح الضائع في نفوسنا. لأننا من أول رصاصة في الحارة قررنا أن نكون مثل الشياطين ١٣،

وبدأنا منذ يومها نشتري الكتاب تلو الكتاب، لينتقل من يد إلى يد لنقرأه جميعنا أطفال «حارة البقّار» وحتى أطفال «جبل محسن» لأننا كنا نلتقي في ملعب مدرسة واحدة، حيث الأستاذ شوكت و«التانت» عزيزة، والمعلمة عفاف، وأم سمير حارسة البوابة السوداء. تجمّدت الدماء في عروقي وأنا أتأمل البدلة الزيتونية بعد أن وضعها أمامي على الكنبة مع حقيبته الصغيرة.

لا أعرف إن كان رصاص سنة ١٩٨٢ هو نفسه رصاص سنة ٢٠١٣ لأن الصوت في تلك الأعوام كان يجعلنا نتكوّم قرب بعضنا البعض، ونحن نصمت أحياناً كصمت المقابر، وأحياناً نتبادل أحداث روايات الجيب «الشياطين ١٣». إلّا أننا كنا نحبّ الملجأ حيث كنا نهرب إليه عند الاجتماع الكبير، لنعزف على آلات الموسيقى المخبّأة في صندوق الجارة «أم أمين»، لأنها كانت تساعدنا في كتم سرّنا الموسيقي.

لا أعرف لماذا لمست البدلة كأني أتحسس الأرض الربيعية التي فقدناها في «حارة البقار» أو كما أطلقنا عليها نحن «الشياطين ١٣»، خضر، علي، رياض، جمال، ظهير، ابتسام، جميلة، محمد، أحمد، خالد، جهاد، سوسو، وأنا «حارة الشهداء»، الفرق أن الخوف كان مجبولاً بعدم المعرفة. أما اليوم فالخوف هو من المعرفة أو البوح بها، لأننا ندرك ماهيتها «السياسة الإقليمية»،

كلمة مضحكة (سياسة إقليمية)، فهل تدوم السياسات الإقليمية بين الجبل وباب الذهب؟ أم أن لبعل الدروايش والتبانة حكاية لا تنتهي؟ لأن «حارة الشهداء» أصبحت كالمقبرة الخاوية من الأجساد مع بقايا أطياف عظام هي أشبه بالأبنية المهترئة أو المنخورة، أو بالأصح هل كل كهل منّا يتذكّر بداية المعارك في «حارة الشهداء»؟..

بعد تختخ ولوزة والأصحاب كبرنا، وبدأنا من جديد مع «أغاتا كريستي» لأن الكهرباء المقطوعة نستضيفها لساعة أو ساعتين في اليوم، وأحياناً لأيام، وربما أسابيع حينها كنا نخوض مباريات نقل الماء على البكرة مع تنظيف الملجأ، والعزف المتقطع لمقطوعات عازف الليل أيام الهدنة القصيرة المدى، لأننا اعتدنا إيقاع أزيز الرصاص. كنا نلملم الرصاص الفارغ ونستعمله كصفارة إنذار حين تقترب «أم سمير» من أحد منّا أو حين يدخل أحد الجيران إلى الملجأ ليلتقي بجارة أخرى، لنراقبهما ونحكي لأمهاتنا فيما بعد ماذا رأينا لتبدأ معارك من نوع آخر.

ارتدى بدلته وحمل حقيبته وفتح الباب، فقفزت عن الكنبة وصرخت فيه: سآتي معك.. انتظر.

– ماذا؟.

– سآتي معك.. ألم تسمع ماذا أقول؟ س.. آ.. ت.. ي.. م.. ع.. ك..

– أمي أنا ذاهب لألتحق بخدمتي العسكرية.

– أعـرف، وهو أيضاً كان في طريقه للالتحاق بخدمته العسكرية، لكنه قرر أن يسحبنا من الملجأ خوفاً علينا من القذائف التي تمطر حولنا، وما زلت أشعر بحرارة يده حتى الآن قبل أن يتكوّم مضرجاً بالدماء، لنعود إلى الملجأ والرعب يملأ أرواحنا قبل قلوبنا.

ارتديت عباءة فضفاضة ووضعت وشاحي على رأسي، ونزلت السلالم مسرعة لألحق به. لا أعرف ماهية الذكريات المرعبة التي أحسست أنها تتدحرج أمامي! نغمة أنفاس رفيقتنا منتهى الفلسطينية؟ أم يد طلال الدرزي التي تقبض على التراب المجبول بالدم؟ أم لهاث محمد وهو آت بسرعة لينضم إلينا، وكأنه هرب من الموت في «حارة الشهداء» ليموت شهيداً وملفوفاً بعلم لبنان؟ أم كوثر التي أصابتها قذيفة هاجمت تختها داخل بيتها المركون في جبل محسن؟ أم صوت جارتنا «أم إلياس» وهي تنادي على كرمة لتعطيها سلّة البطاطا للسلق؟ لأننا كنا نبقى دون طعام لأيام تصل إلى أسبوع حيث كنا حينها نتعلم فن طبخ البطاطا المسلوقة، والحرفة المطبخية المبتكرة في الهرس، لكن من دون

ثوم كي لا نصدر الأصوات العالية، فيسمعوننا في الجبل؛ هذا ما كان يتم تخويفنا به كي لا نثرثر بأصواتنا العالية، ويعم الهدوء قبل أن تبدأ سيمفونيات الرصاص بين «جبل محسن» و«التبانة» أو «جبل محسن» و«حارة البقار»، لا أعرف لماذا أقول «حارة البقار» عذراً «حارة الشهداء».

وقفت على الرصيف والكلاب تنبح، كعواء ذئاب جائعة، وقد أصبح صاحب البدلة الزيتونية بعيداً، لكنه كان يلتفت ليتأكد أنني لن ألحق به. إلّا أن دمعتي لحقت بكل طفل وكهل عاشا معارك إقليمية منعتنا من العيش المشترك معاً، لكنها لم تمنعنا من المراسلة في زمن عولمة فتح مصراعيه أمامنا لنلتقي من جديد في كوكب افتراضي، وأزيز رصاص ما زالت الأخبار تتناقله كلما مات علوي من الجبل أو مات سنّي من التبانة. إلّا أنهم نسوا «حارة الشهداء» و«الشياطين ١٣» ليبقى لغز السياسة الإقليمية مدفوناً في رواية لم تكتبها «أغاتا كريستي» عن باب الذهب.

وما هي تلك القدرة الكامنة في الإنسان وكينونته؟

هل تنمو حبة التراب وتثمر الأرض بشراً؟ أم أن الرمز هو الطين المبلول أساس كل خلق على الأرض التي نحن منها وإليها نعود، ولكن إلى من ننتسب؟.. وإلى من ننتمي؟.. وما هي تلك القدرة الكامنة في الإنسان وكينونته، والتكوين السلوكي الذي يتبعه ويتسبب في عملية الفهم والإدراك واليقين، فإما أن يؤمن وإما أن يكفر، ولا حلول وسطية بين الكفر والإيمان، لأن النزاع العقلي يكمن في البصيرة التي تضيء الروح، وتجعلها تطمئن، بل وتخضعها إلى التحليل والتفكر، لتصل إلى النور الإيماني الذي يقود الإنسان نحو الحق أو بالأحرى نحو إنسانيته الحقيقية، كمخلوق ترابي تكون من عناصر أرضية، وما زال يجهل ما سر الروح، وما هي صفاتها المساعدة على إبقاء الجسد في سخونة، وحركة تدفعه ليبحث عن ذاته ويحقق انتصارات محسومة،

ليساوم عليها معتقداً أن القوة هي في شن الصراعات، وتحقيق المكتسبات ليبقى هو سيد الأرض التي تبوأها بعد صراع مع المنافس الآخر، فمن هو الآخر بداية؟؟..

هل بدأ مفهوم الآخر منذ بداية قصة الخلق؟ حين شعر إبليس أن هناك مخلوقاً يتم صنعه ولا يفهم ماهيته؟! أم أن الآخر هو ذاك الموجود فينا، ونتصارع معه في أعماق الذات؟ نحاوره، نجادله نجري عليه تعديلات، نتشاجر معه نخاصمه.. إلّا أنه يجعلنا نستكشف معاني حوارية تنشأ من صراعات داخلية على المفاهيم والمبادئ، والسلوكيات المكتسبة. أم أن الخوف من المجهول هو ما يدفعنا نحو استكشاف الآخر؟ تساؤلات نطرحها في العديد من المواقف الحياتية التي تجعلنا نقف أمام كل مجهول ما زلنا غير قادرين على فك غموضه أو معرفة ماهيته، فهل الإنسان حقاً عدو ما يجهل؟.

سؤال ربما لا نملك الإجابة عنه! لكنه أقله يدفعنا نحو البحث للكشف عن كل مخاوفنا من خلال المفاهيم المعرفية التي تجعلنا في ميزان الأنا والآخر، والقدرة على الإحساس بالطمأنينة التي تدفعنا نحو طريق الاطمئنان النفسي؛ فقد يقاتل الإنسان ظله ولا يهدأ، إلّا حين يتأكد أن ما يراه أمامه ما هو إلّا الوهم النفسي الذي يسببه جهل الإنسان بالكثير من الأمور العلمية التي تحيط

به، فهو ليس بالمخلوق الكامل المتكامل، إنما هو خلق مثل بقية المخلوقات على الأرض، رغم التشريف الإلهي الذي خصّنا به الله «ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم». ولكن! لماذا لا نسعى دائماً إلى معرفة الآخر والنواحي المتعددة التي يحيا بها؟ فنقاتل بعضنا بعضاً دون اللجوء إلى المفهوم الإنساني بشكل عام! فهل يصعب على إنسان ما إدراك القيمة العقلية القادرة على تحليل المواقف وردات الفعل؟ أم أننا عاجزون عن الاستطلاع؟ فهل فعل ذلك سيدنا سليمان حين أرسل الهدهد ليستطلع مملكة سبأ قبل أن يدعوها إلى الإيمان؟ أم أن سيدنا ابراهيم قال: «بلى، ولكن ليطمئن قلبي» حتى يستطيع الاستقرار، والتأكد أنه ما من وجود لآخر غير الله في قدرته على إعادة الحياة وبث الروح في الطير المقطع، وهذا ما جعله الله يراه ليطمئن قلبه، هو نور اليقين الذي بحث عنه في رحلته التأملية.

إن احترام الإنسان لأخيه الإنسان يمنحه القدرة على التخفيف من الصراعات المبنية على التفاوت في قدرات الفهم المعرفي، وعلى منح مفهوم الآخر السلام لتتساوى الإنسانية، وفق قدرات تجعله لا يهاب أية قوى غير منظورة، وأن يتحدى الجهل بالمعرفة، ليمسح من خياله كل ما هو مرتبط بقوى الشر المنزوع منها الخير. لكن العقل هو الأداة الوحيدة القادرة على فهم الكائنات البشرية الأخرى، وبثها الأمن الذي يمحو أي نزاع،

أو أي شك لنواحٍ حياتية كثيرة، كالخوف من الاقتتال والدمار، والتسبب بحروبٍ وويلات تؤدي إلى خراب العالم، لأننا نحتاج في عصرنا هذا إلى الوعي المكين، لنتطور مع حداثة كونية تجعل من الكون كتاباً واحداً، ومن الأمم شعوباً موحدة تدرك أهمية الإنسان في صنع الحضارات، بعد نزع أي تخوف تسببه النفس الأمّارة بالسوء، أو لمنح أنفسهم اليقين بالله الذي أمنهم من خوف.

إن مفهوم الآخر لا يمكن الإحاطة به ضمن مفهوم واحد، لأنه يحتاج إلى أبحاث مطولة، وإلى أفكار تتسلسل في كتب كي نستطيع التفكر في الكون ومعرفة الذات حقيقة قبل أن نتجه نحو الآخر، لنكتشف فيه ما هو مجهول لدينا؛ فالحياة دائماً تفاجئنا بما هو خافٍ عن قدرات الإنسان وحواسه، كما يحدث أثناء الزلازل والبراكين، وكما يحدث الآن من صراعات بين الأديان والمذاهب، لأننا لم نستطع تحديد مفهوم ماهية الآخر، لأن الأمر يحتاج إلى الكثير من البراهين والأدلة الدينية، والعلمية القاطعة على أن يتخطى الإنسان من خلالها الخوف أولاً، والبحث عن الاتساع المعرفي الذي يجعل من الإنسان قوة بشرية، تستطيع الوقوف أمام أية انتهاكات لحقوقه، ورغبته في الاكتشافات التحليلية التي تقوده إلى حسن الخلق، ليتزين بمحاسن الأخلاق، ويكون نموذجاً بشرياً خُلق في أحسن تقويم، فهل خوف الإنسان من الآخر نابع من قوى الشر المجهولة لديه؟...

يا جميل الصورة..

رفع صوته منتقداً زحمة السيارات، لكن ضجيج الشوارع التي امتلأت بالمارّة لم يمنعه من استكمال ما بدأ من كلام محمل بمعاني الغضب والاستنكار؛ أمسك حزام بنطال الجوخ وبرمه قليلاً... هو من قماش تكاد خيوطه المحبوكة تتفتت، أحسست أن حدود البنطال القصوى لها معاييرها الخاصة، أقله بالنسبة إليه مركزاً إياه تحت الإبط قليلاً، وكأني أمام «شارلي شابلن» عربي يقطن في أزقة طرابلس ويقود سيارة أجرة هي أحب إلى قلبه من «كيم كارداشيان».

جلست على المقعد الخلفي وأمسكت بكعكة اشتريتها قبل دخولي إلى حبيبة قلبه التاريخية، فرمقني بنظرة ارتجف قلبي منها مركّزاً عينيه المفتوحتين على الكعكة، فتساءلت في نفسي: هل هو جائع يا ترى؟ لم أكمل حديث النفس إلّا وقال: «هلأ السمّاق بهرهر من الكعكة يا بنتي».

تجمدت حقيقة كرجل آلي توقف عن العمل بعد أن نظرت إلى السيارة ومقاعدها الممزقة، وتأملت كل تفاصيلها العتيقة، وتباطأت في الـردّ كي لا أحرج الرجل. وضعت الكعكة في الكيس وانتظرت أن يكتمل عدد الركاب المفترض، وهو «يترغل» كحسون في قفص ضاقت عليه قضبانه.

أمسك بقطعة قماش صفراء وبدأ يمسح الزجاج الأمامي، وهو بين الحين والآخر يراقبني خوفاً من أن أكمل أكل الكعكة الساخنة التي أفكر بها، وبطيب مذاقها بعد أن اضطررت لوضع المسكينة في كيس لن يحفظ سخونتها قبل أن أصل إلى البيت.

اهتزت السيارة عدة مرات قبل أن يكتمل العدد، لينطلق أخيراً بحماسة ستينية نحو الطريق العام. إلّا أن زحمة السير لا ترحم، وتكشيرته التي توحي بصعوبة حياته تزداد تعبيراتها تعقيداً. كلما نظرت إلى المرآة الأمامية لأتفحص وجهه تذكرت أغنية فيروز: «يا عاقد الحاجبين» بالرغم من أنه لم يفتح الراديو، لأنه بدأ بالحديث منذ انطلاقة السيارة، وبصوت مرتفع، كأنه خطيب جهوري في خطبة جهادية والكل صامت، أو بالأحرى كأنه الأستاذ ونحن التلاميذ على مقاعد مدرسة قديمة.

قال: «من أربعين سنة لهلأ وهالطرقات هيك حفريات وعجقة بستحلي يوقف شي شرطة سير، وما يكركب الطريق أكتر. يا معتر يا هالشوفير كل أيامك زحمة وزمامير وتعتير».

مواويل متعددة أطلقها، ولم تفارق التكشيرة وجهه والسيارة تتهادى، كأنها طفلة تحبو في منزل مليء بالأثاث، تارة تقف كالسلحفاة أنهكها سباقها مع الأرنب، وتارة تمشي وتهتز فتساءلت: لو كان هتلر في هذا الزمن، فكيف ستكون ردة فعله لو جلس في سيارة كهذه مع رجل لم يقفل بوقه الخاص ولو للحظة؟!.

غرقت في التفكير العميق بعد أن وضعت نظارتي السوداء كي أراقب ملامحه دون أن يوجه إلي نظرات الاتهام التي أشعر بها كلما تلاقى البصر. وأنا غارقة في مراقبة حركته مسح على شعره بكف يده اليمنى، ويده اليسرى على المقود بعد أن استقام عموده الفقري كقط اجتاحته موجة كهرومغناطيسية، أو كأنه الأسد المستشرس في غابة مكتظة بالحيوانات، رفعت حاجبي غير مصدقة ما يحدث. نصف ساعة مضت وهو ينتقد ويستنكر ويوجه خطابه لشعب يرزح تحت عبء الحاجة، ليصل إلى أمكنته وغاياته.

لمن يبتسم يا ترى هذا العجوز؟.

التفت من حولي لأنظر في وجوه الجالسين. هم لم يرفعوا أبصارهم نحوه، فكل واحد منهم مستغرق في التفكير. يا ربي، حرارة ما دخلت عروقه المتيبّسة، وتغيرت ملامحه كلياً بعد

أن رضي بزحمة السير، وصمت عن الكلام لثوانٍ. التفت كلياً إلى اليمين، والتفت معه بعد أن توقفت سيارة هوندا حمراء بجانبه، وفيها صبية شقراء هي أقرب إلى مريام كلينك، ابتسم لها برومانسية مع ضحكة رنانة وقال: بدك صورة.

ضحكت وفتحت فمي كالسلحفاة التي رحلت مع بطتين فقلت له: أظن أنها تحتاج أغنية «جدع يا جميل الصورة» للمغنية داليدا؟.

هل عندك شك؟!..

فتحت باب السيارة وترجلت منها ممسكاً بنظارة سوداء متلهفاً إلى رؤية انفعالاتها، من صلابة مقود منعني من الإحساس بلمس يديها، لأشعر بطراوة تحسستها عن بعد مسافة فاصلة بيننا لا تروي ظمأ لهفتي لها لأضمها أو ألمس ملامح وجهها الفاتن، فقد بدا التوجّس والقلق في عينيها، لم أشأ أن أقسو عليها أو أن أتسبّب بإحراج يؤدي بها إلى مزيد من الحياء الأنثوي الذي يثيرني أكثر فأكثر في كل مرة أنظر إليها، وهي تجلس قربي وتعتني بأناملها المتجمدة من البرد، فرعشاتها ترتفع وتهبط مع ضربات قلبها التي تهمس لي بأجمل الكلمات، ولكنها تخاف النطق بها ربما! تشعر بالشك نحوي، وحقيقة هذا يسعدني، فبعض الشك هو إيمان بالوجود.

مسحت زجاج السيارة الأمامي كي تصفو الرؤية أمامها، وهي تبتسم باتزانها المعهود، وسحرها الربيعي النابض بجمال

يثير بي اللهفة نحوها. رفعت السبابة أمامها وداعبت ملامح وجهها من خلف الزجاج فأحسست كأني أرسمها، وهي تزداد حياء وتتلوّن خدودها البيضاء بحمرة خفيفة حيث تكتنز شفتاها فتمتلئان بالحيوية والحياء. رسمت على الزجاج قلباً صغيراً بعد أن غمست سبابتي بأحمر الشفاه الذي أخذته من يدها قبل أن أخرج من السيارة، ضحكت، فأسرعتُ إلى الداخل لأمسك بمقودي وأستمتع برنات ضحكاتها وكاظم الساهر يغني: هل عندك شك؟.

سحبت من جيبي علبة «الوينستون» البيضاء وأخذت منها سيكارة تفوح منها رائحة التبغ، لامستها أشعلتها وضعتها بين شفتيَّ. لربما تمنحني نوعاً من التخدير العاطفي بينما تلامس مسمعي نغمات صوتها الطروب، فسألتها بسرعة: هل عندك شك؟.

مالت نحوي بغنجها المعهود ووضعت سبابتها على شفتيَّ لأصمت، وكأنها تتهادى على جسدي، بل كأنها تتهاوى، وكل منّا يجلس على مقعد مختلف. أنا خلف مقود، وهي تتأمل جمال الطبيعة وتستمتع بأغنية كاظم الساهر. لكنني لم أستطع إلّا أن أتركها تسترسل بالدلال والجمال وكذلك بالحبّ الذي يفوح منها كعطر لم يستطع إيجاده زويسكند في روايته، فعطر الحب له ميزة خاصة حين ينبعث بصدق وعفوية من قلب حبيبة مثلها.

حين أغمضت عينيها أحسست أنها بدأت تحلم بي، وأنا

قربها تلهيني القيادة، فلا أستطيع منح مشاعري حريتها، إلّا أنني شعرت بنفحة رجولية تضج برغبة لأكمل معها مشواراً من نوع آخر، وهذا جعلني أفقد التركيز في القيادة، اتجهت بالسيارة نحو طريق فرعي بهدوء حيث بدأت أشعر بأنفاسها بعد أن أوقفت السيارة، وتركتها تستمتع بسهوة قصيرة، لتحلم بواقعنا قدر استطاعتها، لكنها رمشت لي بعينيها، وكأنها أدركت بحاسة المرأة السادسة أنني أتأملها.

– ماذا تفعل، لماذا توقفت؟؟.

– تعالي واجلسي خلف المقود، أريد الجلوس قربك وأنت تقودين.

– بدا عليها الاستغراب! لكنها فتحت باب السيارة واتجهت نحوي، كأنها نرجسة تتمايل في البساتين التي كانت تتأملها على طول الطريق الجبلي.

– ها... أنا جاهزة.

خرجت من السيارة وأنا أمعن النظر بكل تفاصيلها كأني أراها لأول مرة، وتركتها تجلس خلف المقود لأجلس قربها، وأتأمل الواقع الجميل الذي جمعنا، وكل منا يشك بمقدار حبّه للآخر، فلا أعلم حقيقة من منّا يحبّ الآخر. إلّا أنني بدأت أشعر بالفرق بين الحلم والواقع، أنا وهي في رحلة لن تؤرخها لحظة مرت بنا، لأنها في روحي وأنا في قلبها.

استدارة كلام..

تناولت الخليوي لألتقط لها صـورة، وهي تجلس على رصيف في حديقة المنشية الخالية من أصوات عصافير كانت تعشّش فيها حتى في فصل الشتاء البارد. لطالما كنت أتمشى فيها لأختصر المسافة بين مكان ومكان، فهي تتوسط ساحة التل في طرابلس كنقطة أو دائرة تصل بخطوطها طرقات فرعية نختصر بها المسافات. لم أفكر حقيقة أنها سترفض الصورة، فحين سمعت كلامها أصابتني الدهشة، فما بين مروري من أمامها وكلامها سرعة صوت أسرع من الضوء، لكنها بجدارة استوقفتني: لأننا ننتظر ما نريد سماعه برغم أننا في الأعماق ندرك أن هذا ما هو إلّا تدليس كلام...

– عنيدة والحبّ بقلبك مغروس من صغرك راكضة وراء الهمّ والسعادة مفقودة من قلبك.

ضحكت واتّسعت إشراقة شمس الظهيرة في عينيّ. أعادت

ذاكرة سمعي كلامها الرنّان، فمفردة الحبّ كزهرة اللبلاب تتعشق جدار القلب بسرعة، استدرت نحوها لألتقط لها ما يشهد أني رأيتها بكل تفاصيلها المشبعة بسواد من الرأس حتى أخمص القدمين. لكنها وضعت يديها على وجهها وقالت: «بتصورونا وبيدفعوا لكم ثمن الصورة ونحن بالطرقات مشلوحين وأنتم على الكراسي قاعدين ومحزونين».

تركتها ومشيت. لكنها صرخت بي: «أبصّر لك أشوف بختك أقولك على كل شي بحياتك»، أدركت أنها تريد بعض المال ليس إلّا. لكن كرامة الإنسان تجعله يمتهن أسوأ المهن ليحافظ على ماء الوجه. عدت إليها بعد أن خطوت أكثر من خطوتين، وجلست قربها على رصيف الحديقة في حشرية خرجت من نفس استفزتني. لا أدري إن كانت لأكتشف كذب توقعاتها! أم لأنني أردت فعلاً معرفة دقائقها وخفاياها، وتدليسها في إطلاق شعوذات عشوائية تنم عن قلّة خبرة، فهل تتنبأ أم أنها مجرد استدارة كلام؟...

وجوه غريبة لم أرها من قبل سكنت المنشية بعد أن استبدلت صمتها وتغريدها بثرثرة وضجيج شبيه بضجيج سوق السمك. لأن كل من فيها يغني على ليلاه، أطفال يركضون ورضّع على صدور أمهاتهم، وعشاق يتلامسون ويتهامسون بخجل، وعجائز يستلقين

على الأرض. أحسست أني في حمص، وقرب جامع خالد بن الوليد، وفي ساحته الواسعة حيث أصوات الباعة تعلو قبل الدخول إلى حرم الجامع المتّسع، تنبّهت أني أجلس قرب امرأة بعمر جدتي، وقد رسمت على يدها وشماً صغيراً يميل لونه إلى الأزرق المسود قالت: «إضمري لأقرأ لك البخت».

فتحت لها كفّي، فقالت: «عندك هموم علو الجبال، وعندك مصاعب ستتغلّبين عليها بإذن الله». سحبت يدي من يدها، وفتحت حقيبة يدي وناولتها بعض المال، وقلت لها: من منّا بلا هموم ومن منّا لم يقع في مصائب؟! لو كنت تعلمين بالغيب ما رأيت المنشية تخلو من عصافيرها، لتستبدل التغريد بالضجيج. أخذت شهيقاً ملوثاً بدخان من هنا وهناك، ملأت به رئتي، وأطلقت زفيري الممزوج بأناة منشية اختلطت أوجاعها بأوجاع شعب تذوّق التهجير والبعد، وهو ما زال يحبو في الحياة.

عربة خيل

دفعت به نحوي، فالتقطته بسرعة. لم أنتبه، فقد احتضنته لشدّة تأثري به. كانت تتمتم مستنكرة هذا العالم الغريب الذي وضعوها فيه. حاولت تحريك شفتيّ لأتكلم، لكنها سبقتني بكلامها الودود، بعد رشقة من زمامير السيارات خلفنا. للحظات شعرت كأني في فيلم هوليودي يتم تصويره هنا، في خضم هذا الكم الهائل من السيارات الغاضبة. حقيقة تردّدت في سؤالها عن حكايتها... فتحت حقيبتي الجلدية وسحبت منها بعض حبّات السكاكر فأنا جالسة في مكان لا أحسد عليه، لا أعرف ما الذي تدحرج تحت قدمي، ولا من الذي احتضنته... فما زال يبكي رغم أنه خطف حبات السكاكر، نظرتُ إليه، فإذا بكمّ هائل من المُخاط يسيل من أنفه، ويغطي قسمات وجهه!!!...

هناك ربما... من أراد تغيير الديموغرافيا البشرية فعمل على تكوين رؤية استراتيجية بأن الشعوب تولد بعد كل صراع، تتشكل

بنية جديدة تمحو كل ما هو قديم ببساطة الزمن الذي يمضي الآن. أقول هذا لأن النقاط الموشومة على ذقنها تشبه خارطة الطريق. لا تسألوني عن أية خارطة طريق أتكلم؟ ربما خارطة الطريق إلى القدس، وربما خارطة الطريق إلى البيت الأبيض؟ بدأت الهذيان. حقيقة أشعر بهذا في داخلي، بيد أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد. بل! أحسست أن أبخرة الأجساد تتصاعد كأنها من البخار بعد أن دخل رجل ومعه ثلاثة أولاد، وبهذا أصبح العدد مع السائق عشرة كعدد أصابع اليدين، كلما توقفت السيارة كانت حركتها تزداد، فالأولاد في نطّ وهرج ومرج! والسائق كأنه أصم وأبكم لا، بل كأنه غير موجود، وفوق كل هذا الزحام في الداخل كانت أغاني «علي الديك» ترتفع وترتفع.

حاولت أن أبعده من حضني، فأجلسته بيني وبين أمه. بالأحرى حشرته بيننا، فرمقتني! شعرت كأني ارتكبت هفوة تاريخية لا يمكن محوها من ذاكرة شعب وفد إلينا، فكرّمناه ونسينا أنفسنا. فجأة أحسست بسخونة جانبية لا أعرف ما هي. مددت يدي لأتحسّس!!! فقالت المرأة: «شوية مي فلتوا منه..» فضحكت ضحكة موجوعة اخترقت صدري، وقلت للسائق: توقف لو سمحت. لكنه لم يسمع لأن «علي الديك» يصدح أكثر من «أوباما» شخصياً. قالت له المرأة ذات الوشم: «يا أخونا وقف

ما سامع أطرش أنت»، فنهرها وهو ينظر عبر المرآة الأمامية «شو مفكرة حالك بعربة خيل أنتي....».

عذراً لن أكمل قصتي مع عربة الخيل، أترك لمخيلتكم البقية. لكنني بالتأكيد بعد كل هذا أحتاج إلى أغنية «رزق الله على العربيات وعلى أيام العربيات»!!.

الكادح يرفع إيدو...

جلست على الرصيف ناظرة باصرة مستبشرة بأن تحمل لها اللحظات القادمة خبرًا سعيداً من ابن قريبتها العامل في مطعم على مقربة من إهدن. هذا ما عرفته منها بعد حين. فهو يعمل في تلك المنطقة الباردة نسبياً عن مدينة طرابلس، والمميزة بطبيعتها الخضراء وجمالها المنسجم مع ارتفاعها عن سطح البحر. كما أنها تتميز بهدوئها الذي يدفع الزائر لها إلى الإدمان على زيارتها، فلا مقارنة بتاتاً بينها وبين طرابلس لاعتبار الثانية مدينة حيوية تعج بالسكان، وبالحارات الشعبية والعشوائيات مع الاحتفاظ ببعض الشوارع التي باتت لأكابر القوم فيها، فهل من يبحث عن الجمال كمن يبحث عن عمل يعتاش منه ويحفظ له كرامته؟ القلق في عينيها عميق كعمق يديها المتغلغلتين في شال صوفي حتى تكاد تظنها شرنقة لن تخرج منها دودة الحرير أبداً. تأملتها بينما كان صاحب الدكان الصغير يعيد حساب الأغراض التي اشتريتها.

لكنها كبكبت نفسها كأنها في بطن أمها حتى يظن من يراها أنها جالسة على سجادة سميكة كطفلة مراهقة بعمر العشر سنوات تنتظر هلال العيد. وضع لي مهدي وهو صاحب الميني ماركت التي اشتري منها قوت يومي ما وقع عليه اختياري في كيس أسود، وربطه كأنه يربط على خزينة بنك مركزي مخافة أن يُقتحم. اقتربت منها أكثر ولمست رأسها، لكنها لم تشعر بلمسة يدي، حاولت مرة أخرى هزها قليلاً ورفع وتيرة صوتي لتشعر بي قربها فرفعت رأسها نحوي وعيناها تبدوان كمن استفاق مع أصحاب الكهف بصوت يهدج ويتقطع كأنها لم تتكلم منذ سنوات.

ما باخد حسنة من حدا

سألتها من تنتظرين يا حاجّة؟ ألا تشعرين بالبرد؟ تجمدت عيناها بنظرة عميقة أخافتني، فشحوبها وارتجاف أرنبة أنفها لم يمنعا محاولتي في التوغل لمعرفة ما استفزني من رؤية امرأة بعمر الخمسين سمينة قليلاً كوسادة طفل صغير نام عليها الشعب بأكمله، خفضت رأسها على صدرها، لتكمل غفوة نومها بعد أن مسحت الشارع بعينيها كمن يبحث عن قط ضاع منها. عاودت سؤالي لها مرة ثانية يا حاجّة من تنتظرين؟ كيف أستطيع مساعدتك؟ رفعت رأسها مجدداً، ولكن هذه المرة لتمسح فمها من وبر علق عليه من الشال الصوفي الذي بين يديها والغارق في

حضنها كطفل مولود حديثاً، فتحت الكيس وتناولت منه بعض الكعكات المحشوة بالتمر لأناولها لها فقالت: (ردي غراضك على كيسك ما باخد حسنة من حدا) خجلت من نفسي، قلت لها: (طيب ليش قاعده هون) فضحكت بسخرية زادتني خجلاً: (هيدا الشاطرين فيه الناس سؤالي بس عن شي ما بفيد) أنتظر جهاد ابن بنت خالتي يعمل في مطعم قرب إهدن (وعدني اليوم يحكي معلمو بلكة بلاقي شغل) كلامها زادني شغفاً لمعرفة المزيد عنها. نفضت الشال من بين يديها ورتبته ومن ثم وقفت لتدخل الدكان المجاور من فتحة ضيقة لا أستطيع الدخول منها لو حاولت أنا اللحاق بها. إلا أنها فتحت الباب أكثر وقالت لي اتفضلي (تعي اشربي فنجان شاي). دهشة ملأتني من هذه المرأة الغريبة الأطوار والمطمئنة القلقة في آن. كانت تجلس في الخارج كأنها في حديقتها الخضراء. شحنت انفعالاتي لتهدأ أكثر كي لا أضايقها بأسئلتي التي تبحث عن أجوبة تائهة من هذه المرأة الخمسينية، لديها ما يكفي من هموم على ما يبدو لأؤكد أنها لن تتحمل عاصفة كميشا لتكمل غفوتها بهذه الطريقة التي رأيتها فيها.

شاي بنكهة عتب

بحثت بعينيّ عن المطبخ فلم أجد له سبيلاً، تساءلت أين الشاي يا ترى فسبقتني لتقول: (ما تقرفي في حمام صغير جوا ومغسلة صغيرة عاملة رف حد المغسلة للغاز لأطبخ عليه أكلاتي). بلعت ريقي وقلت في نفسي تورطت على ما يبدو. جلست على كرسي يهتز ملفع بأقمشة مهترئة، لكنها جعلته يضمها أكثر بما زادته عليه ليسعها معهم قالت لي: بعد أن تربعت على الكرسي أنتظر جهاد ابن بنت خالتي التي جاءت هاربة مع أولادها بعد أن مات زوجها في حرب سوريا، وهو يعمل بمطعم في إهدن وأخوه في المحمصة القريبة من هنا وأمه في بيت لطبيب ماتت زوجته وهي تعتني له بابنته، وأنا أبقى لوحدي أطبخ لهم وأنظف لهم إلى أن يأتي الليل (متل ما شايفة). سألتها أين عائلتك يا حاجّة؟ قالت: أنا نجاح (قوليلي الحجّة نجاح) نظرت إليها لأحاول تقييم كلامها وتحليل نظراتها لأعرف مدى حزنها من هذه الأوضاع التى لا تليق بامرأة في عمرها، فلهجتها اللبنانية ذات

لكنة جردية يستلذها السمع. دخلت الحمام واحضرت لي فنجان الشاي تفوح منه رائحة القصعين، وعلى صينية أكل الدهر منها وشرب، فتعرجاتها تشبه تعرج خطوط مرسومة على وجه ثمانيني. تناولت كوب الشاي ووضعته على الأرض ليبرد قليلاً، نظرت إليها، فأكملت كلامها لتقول بتردد: أنا أبحث عن عمل لي (عندك حدا بشغلني عندو). فوجئت بسؤالها لأني أحسست أنها ستسقط من أول جولة عمل لها، فجسدها المكبكب ككرة الصوف لا أظنه يمتلك من القوة ما يكفي لتؤدي عملاً ما بإتقان الشباب، ولكن هل من يؤمن شيخوخة الإنسان إذا ما الدهر ابتلاه وعجز عن تأمين لقمة العيش له؟

شو ذنبهم يبقوا لاجئين

دخل شاب من فتحة الباب، وارتمى على فرشة إسفنجية رفيعة منبطحاً على بطنه بعد أن رمى تحيته بسرعه تاركاً الحذاء خارج الفرشة التي تشبه حصيرة عرزال قديم، وهي متربعة على كرسيها متناسية من دخل علينا، وحتى لم تنظر إليه بل نظرت إليّ وقالت أنا أنظف الصحون: (إذا بتعرفي شي مطعم عاوزين وحدة تنظف صحون قوليلي)، قلت لها أنت لبنانية، اذهبي إلى الشؤون الاجتماعية سيقدمون لك المساعدة بالتأكيد، تبسمت بصمت كأنها احتاجت إلى بذل المزيد من القوة، لتحرك شفتيها وتصطنع هذه البسمة. قالت: ذهبت (تيتي تيتي متل ما رحتي متل ما جيتي)

الأوليات ثم الأوليات ولا أعرف ما هي (شو بدك بهالحكي كلهم بقولولي هيك). دخل شاب آخر بعمر العشرين أيضاً تقريباً انتزع الحذاء بعد أن جلس إلى عتبة باب الحديد المفتوح نصف فتحة وأسند ظهره إلى الباب قال لها: (يا خالتي شو في أكل) قالت: بطاطا مسلوقة بكمون وملح (الجاط على رف المغسلة الكبير) تركنا ودلف إلى الحمام فقالت لي: (برد الشاي ما بدك تشربيه) تناولت الفنجان، وقطعت أنفاسي لأرتشف منه القليل دون التفكير أنه صنع في الحمام. رفع الشاب النائم رأسه بعد ربع ساعة تقريباً وسألها يا خالتي ما في غير البطاطا بكمون؟ قالت له: في شاي وخبز لكنها عاودت فسألته: سألت صاحب المطعم (إذا عايز وحدة تجلي صحون؟) ضحك وقال لها: المعلم ما بشغل لبنانية عندو.

كادت أن تخرج الدمعه من عينيها، لولا أنه مازحها قائلاً: يا خالتي أمازحك والله (نحن ما منتركك بدنا وحدة تهتم فينا). فقالت لي: (شفتي شو كنت ناطرة) نظرت إليها مستغربة متسائلة على من يقع اللوم؟ فرب العمل يحتاج إلى عامل كادح نشيط ذي صحة جيدة لكي يستطيع الاطمئنان على سير العمل، سألتها: أين أولادك يا حاجّة نجاح؟ قالت لي: عندي ابنة واحدة متزوجة في سوريا ولا أعرف أين هي الآن مفقودة هي وزوجها وأولادها (مدري طيبة مدري ميتة). وقف جهاد قربها وضمها بين ذراعيه فقالت له: (يا رب تبقى علقانة بسوريا لتبقوا حدي)، قلت لها:

هل يعقل ما تقولين، تتمنين البقاء في هذا الدكان (شو ذنبهم يبقوا لاجئين)؟

سألت جهاد ماذا تعمل في المطعم؟ قال لي يا خالتي أمسح وأنظف الطاولات والحمامات، أعمل لساعات متواصلة من التاسعة صباحاً حتى الآن. وضعت كفي على فمي متكئة عليه كي أصمت وفي قرارة نفسي أصابتني دهشة من هذا الكفاح والإصرار على تحصيل لقمة عيش مغموسة بالرضى، لا نلمسها عند الكثير من شبابنا اللبنانين اليوم، فأكمل كلامه وهو يمسك يد نجاح، لكن يا خالتي مسرور بعملي هذا (أحسن من القعدة بهالدكان بين أربع حيطان وبلا شغل)، قلت له والتعب ووقت الاستراحات والعطل؟ قال بسرعة: (ما بدي عطلة بشتغل بنبسط بالشغل أكتر غير هيك بيعطينا المعلم زيادة إذا اشتغلنا يوم العطلة)، فتبسمت الحاجّة نجاح وقالت له: ما عرفت تشغلني معك يا ولد. قال لها: ومن يطبخ البطاطا المسلوقة بالكمون والفول بسوس وزيت، فبكت وتدحرجت دمعتها الجردية على خد برزت منه التجاعيد.

وظيفة الختيار يحرس القبور

خرج الشاب الآخر من الحمام يلحوس شفتيه، ويمسك بطاسة من البلاستيك يشرب منها قالت له: يا أنور وين العبيد؟

ما فيك حطيت نتفة بجيبتك لخالتك؟ قال لها خافي الله يا حاجّة نجاح (ما بمد إيدي عحبة عبيد). سألته ماذا تعمل في المحمصة قال لي: احمل الأكياس المملوءة بالحبوب قبل التحميص لأضعها في المحمصة، ومن ثم أوزع الأكياس الفارغة علينا وأرتبها، أعمل لساعات طويلة، وإذا احتاجنا المعلم في الليل يدفع لنا زيـادات. قلت له: تتكلم بصيغة الجمع معك شباب أيضاً؟ قال لي: نعم نحن مجموعة شباب متل بعض من سورية، هربنا والتقينا في طرابلس ونحاول أن نعيش. وهل أنت سعيد في العمل؟ ضحك وقال لي: الحمدلله مستورين (أحسن ما نقعد متل النسوان)؟ قالت له الحاجّة نجاح: المعلم ما عايز حدا يشتغل بتنقية الحبوب المنزوعة قبل التحميص؟ قال لها: لا يا خالتي، حبوب معلمنا نظيفة (ما متل فولاتك المسوسين).

هبط الليل وكان لا بد من ترك الحاجّة نجاح لأذهب إلى بيتي محملة بالأسى لولا أن دخلت امرأة سمينة بالأربعينات تقريباً جميلة الوجه وأنيقة في لباسها تحمل في يدها أكياساً، ركض جهاد وأنور نحوها وحملا الأكياس عنها وقبلا يدها، فانتزعت حجابها ومدت يدها لتصافحني فصافحتها وأحسست ببرودة يديها الناعمتين. جلست على حصيرة صغيرة وتربعت، فأحضر لها ابنها فنجان الشاي كأنها ملكة من عهد الملكة زنوبيا، فقالت الحاجّة نجاح: (أولادك ما شافولي شغل بيضحكوا علي

كل مرة)، فقالت لها: (الختيار ما بيشتغل الختيار بيحرس قبور ارتاحي نحن ما مقصرين معك). فقالت الحاجّة نجاح: (الأخت بتشوف على شغل لي، الله كريم). تورطت على ما يبدو بالحاجّة نجاح. تحدثت قليلاً مع ابنة خالتها عن عملها في منزل الطبيب قالت: «سعيدة جداً في منزله أرعى ابنته الصغيرة وهو رجل محترم. سألتها وهل يدفع لك جيدا؟ قالت لي الخير كتير والحمد لله هو رجل كريم وابنته تحبني، وأنا أحبها، أصبحت كابنتي التي لم أرزق بها والدكتور (ما عنده ثقة بحدا غيري يأمنه على بنته). تركتهم بجلسة شاي مع قصعين تجددت لتوها؛ فالرائحة ملأت الدكان الصغير، سحبت نفسي من فتحة الباب الحديد بعد أن حاولت فتحه أكثر، فقالت لي الحاجّة نجاح: (ما تنسي تشوفيلي على شغل وما تقوليلي الختيار يحرس قبور).

على الوعد يا كمون

بقي موضوع الحاجّة نجاح في بالي لأيام وأنا أفكر بعمل يؤمن لها كبر سنها أو بعض الحلول الأخـرى. بعد اتصالات متعددة مع مـدراء الجمعيات توصلت إلى نوع من مساعدة يقدمونها لها شهرياً من مواد غذائية وطبابة وما إلى ذلك. توجهت معها إلى شيخ جليل يمتلك ميني ماركت صغيرة عرف عنه الإحسان ومد يد العون لمن يحتاج، فسألته من يمولك في

المساعدات التي تقدمها؟ قال: صدقات أموالنا يا أختي والخير كتير(البعض يعطيني مبالغ صغيرة من المال ويقول لي أصرف فيه تموين لفقراء محتاجين، صدقات يا أختي، ناولها عدة أكياس بعد أن أخذ منها أوراقها التي تثبت أنها أرملة ووحيدة. وعند مروري قرب مستديرة نهر أبي علي اصطف بعض العمال بانتظار من يحتاجهم للعمل، وعند وقوف أي سيارة قربهم يرفعون أيديهم فقالت لي ضاحكة (الكادح يرفع إيـدو)... يا حسرة (راحت أيام الكدح وختيرنا). عاودت الاتصال مرة أخرى بالجمعيات، فطلبوا أيضاً أوراقاً أخرى، ومع ما هو مطلوب من أوراق ضرورية لتقديمها للجهات المختصة زرتها وطلبت منها تحضير نفسها لتقديم الأوراق للجمعيات الخيرية، وأعطيتها مبلغاً من المال لتأمين تكاليف النقل وفي كل مرة أذهب إلى الدكان أسألها عن مساعدات الجمعيات لها فتقول لي: (كل ما رحت بقولولي انتظري يا حجّة نحن نتصل فيكي وعلى الوعد يا كمون، الظاهر الختيار حتى ما بيطلعلوا يكون حارس قبور). لأنه ميت أكتر منهم. اختنقت أنفاسها وهي تقول: (عتلانة هم رجعتهم لسوريا مين بيحملني غيرهم) فتركتها باكية يائسة مستنكرة، لأتوجه إلى إهدن وأنعم بهدوء خسرته طرابلس التي تزداد معاناتها سنة بعد سنة مستبشرة بأن تحمل الأيام القادمة الأخبار السعيدة.

نقطة بلا حرف...

يكفيه أن يضع يده على يدي، ليدرك إحداثيات نقطة ثابتة متمركزة لم يلمسها، ولم يستطع نقشها على حرف عربي، فرؤوس الأصابع تحمل خلايا لمسية، تجعلنا نشعر بالآخر، أمنه... ارتباكه... خوفه... ويقينه كنقاط اتصال مخفية في جسد هو سر... ما زال كما تلك النقطة في كلمة عرب، التي لا تحتاج إلّا لنقطة ثابتة تفرض وجودها في حقل بصري يجعلها في حالة راحة وخمود، ما يجعل الصراع البصري قوياً ليراها متحركة وهي ثابتة تحت حرف يجمع خطاً مستقيماً من نقاط مختلفة..

إن تطور العقل العربي خلال القرون الماضية!.. جعل من الغرب نقاطاً متوزعة في أطياف لونية تهدف إلى بناء فكر إنساني مُعصرن، ولعل عصرنته هو جعله قادراً على العيش في بؤرة شبكية بصرية تجعله يتخبط، فلا يحيا كما ينبغي له في موطن عاش فيه ابن خلدون، وابن سينا، وهذا كافٍ ليعرف أن النقطة هي السبب

الأول لظهور كل الأشكال، فالنقاط في كلمة غرب تكفي لرسم خط مائل صلب يسبب انكساراً ضوئياً قابلاً للتحرك من خلال نقطة واحدة سابحة في الحياة...

لا أعرف... لماذا اخترت المغامرة معه!.. وعين العقل تدمع تذمراً من مشاعر واهنة تصيب البعض، فتجعلني أصاب بفتور انفعالي يخفف من وعي مدارك فهمي للحياة ليصبح فهماً ذا كثافة في منبع ضوئي يصب في غسق محا تمردي... خوفي رهبة قدر يشاكسني وكأن العتمة تتغلغل أمامي في ضوء يلفع سطوعه من يراه...

التقطت لوناً مؤثراً في عينيه جردني من تفاصيله الأخرى، وجعلني أشعر ببقايا كحول في دماغه المعقد. حددتها كبقعة ضوء انطلقتُ منها لمعرفة فكر متماوج ذي روافد ثقافية تائهة بين غرب وشرق، والذكاء يشعُّ من أناقة وعطر في ألق ملأ حواسي سكينة، وهو يبحر في احترام أنثى ترافقه في كل مرة برغبة منها، كأنه يُشعل ذكريات شهريار في مجتمع أنهكته القيود والموروثات، لكن في زمان ومكان مختلفين وكينونة هي أشبه بتقاليد شرقية عشائرية لا تمت للعرب بصلة، إنما هي مأخوذة من حضارة رومانية بيزنطية وربما بربرية بقيت مُتغلغلة في عقول الكثيرين....

أدار مفتاح السيارة، لينطلق بي عبر طريق يشبه حياتي، ما

جعلني أشعر أنه طريق متعرج حرصاً منه على ألّا يراه أحد مع امرأة وكأنه يحتجب عن عيون الناس كي يبقى في نظر نفسه رجلاً عصامياً...

برزت مساحة فكره أمامي، كما برز قوس قزح تاركاً أثراً في رؤية اعتصرت ألوان الزمن في وهج ضوء شمس يتحلل خلال قطرة ماء، ليرسم نصف دائرة تجمعت فيها ألوان شفافة سحرتني من خلال انكسار ضوئي مائل في نقطة ماء عكست وجود الشمس والقمر في تلك اللحظات...

اختار زهرة الكاميليا التي يصعُب الاعتناء بها رغم أنها ذات ألوان أخاذة متنوعة تنبتُ في الشتاء تعيش في الظل ولا تحب ضوء الشمس، فلونها الأبيض يجعلك تشعر بنشوة السماء التي تحتضن غيومها الصافية التي تخط ملامح الحياة ولونها الأحمر المتأجج الذي يشبه لوناً يستفيق من غسق في شفق يزقزق على هديل الطاحونة الحمراء الشهيرة..

ما زال يحتفظ في ذاكرته بحكايا شهرزاد المرتبطة بمواطن خلل في أسطورة يرى فيها البعض فوز الأنوثة على ذكورية قاسية يقال إنها قساوة شرقية، وهو ينفي في الوقت نفسه شخصية شهريار وترجمته لها من خلال تصرفاته الطفولية والرجولية في أن معاً..

هذا ما جعلني أشعر لأول مرة أن شهريار هو شخصية غريبة بامتياز لأنه ذو فكر معاكس عند دخوله في حياة أنثى ليتربع في زواية رؤيتها، كأنه خطّ انعكاسيّ شفاف مائل لا يستقيم...

– هل تخافين؟..

تجمدت من سؤاله ومن فعل يبث أشباح خوف تلتقط كوابيس مغامرة مليئة بعلامات التساؤل...

– ومِمَ أخاف؟..

– هل تثقين بي؟...

– نعم، أثق بنفسي، ثقة تجعلني أدرك أن خسوف القمر يعني أن يحتجب نوره خلف الشمس فلا يعكس أرادتها ولا يثير حزنها... أنا على يقين من هذا..

– أنا مؤمن أن الحبَّ نمارسُه في شغف ليلة واحدة، وقصيدة نكتبها على أنفاس صدر يلهث وذاكرة تبكي ماضيها..

– أنا أؤمن أن الحب أبداً هو لكل الليالي والأيام، كحكايا شهرزاد التي تاهت أمامك في طيارة ورقية لا أجنحة لها تنازعتها ريح قوية لفحت كل وجه أنثى عرفتها...

آه.. شهرزاد هذه هي الحكاية التي لم أعش تفاصيلها على صفحات عمر أيقظ شهية جسد ظامىء لأنوثة حب أفتش عنها في جيوب النساء.. أحببتها لكنني أحببتُ الرقم واحد في حياتي، فكنت أسابق الأرقام كلها ونسيتها في مهب الريح وحيدة مع زهرة

الكاميليا التي أحبها، فلم تسافر في أحلامي بل جعلت من لهفتي واشتياقي أجزاءً ملونة وكل جزءٍ تمسك فيه أنثى مختلفة..

– هل تعبت...

– من الحب؟.. لا بل تعبتُ من فكر عربي ينقصه التحرُّر..

– ألستَ متحرراً، وفي عروقك صهيل حياة تناقضت بك ومعك بين عرب وغرب!؟.. وأنت من يُعاشرُ النساء في كل ليلةٍ ويمارسُ معهن الحب؟..

– لا ... ما زلتُ أخافُ شهرزاد.. أخاف رحيلها مع رجل غيري.. أخاف النساء اللواتي عطرهنَّ في فراشي؟.. لماذا أنت محجبة؟..

– احتراماً لك.. ولي.

– هل لي برؤية شعرك؟..

– وهل تحتاج لرؤية مادية تجعلك تشعر برجولة تشتاق أن يفوح طيبها أمام أنثى يجري في عروقها حُسن الحياة ويتناهى في فؤادها وهج نفس بلغت ذاتها؟..

– نعم، أحب رؤية مفاتنك، لأسكن بين أهـداب صبح وضلوع ليل يتأوه في جفون طير غريد يزهو ويمتلىء شباباً..

أحببتَ زهرة الكاميليا، ولم تشم عطر الورد المغناج حين يضوع شذاه على خدّي أنثى تعانق فجراً يترقرق ضوؤه وجداً...

كنتُ أتأمل كلماته الغريبة، وكأنني أضعُ عليها النقاط كي أستطيع القراءة بشكل جيد..

أنفاسٌ.. حبسها غضباً مع أغنية فرنسية يدندن بها، فيلتقطها سمعي لتستقر في صدر أرهقته أنـاتٌ واهنة مرَّ الدهر عليها فأصبحت كجذوة من مجمر بخور فاح سناه...

أحسستُ كأنني في رحلة انحراف ضوء عن مساره بين فراغ روحي ومادة ملموسة جعلتني في ظلام لفَّ أرجائي وحب يغشاه قلبي يطلبه حثيثاً لرجل لا أعرف حتى عناوين حياته، لعلها أنفاسُ الحياة التي تتصارع به، فأتصارع مع خطوط تتشابك مع أحرفي الحزينة على أوراقي..

للحظات.. سألت نفسي؟. ماذا أفعل معه؟.. لماذا قبلت دعوته؟.. أين وطنه؟.. أين زوجته؟.. أين هو؟.. شعرتُ كأنه طفل يبحث عن أمه وهي في صورة بعيدة عن عينيه..

ربما حجابها الذي أنكره!.. وهي نجمة ذات شال أبيض تظهر أمامي وتختفي. جعلتني أسمعها كأنها تقول لي: «هذا مني وأنا منك ومن حواء أمنا، فانتبهي»...

ارتجف حين قلتُ له أمك محجبة؟.. قال: أمي تضع شالاً فقط على رأسها؟..

كادت ضحكاتي ترتفع لو لم أمسكها.. أيعقل أنني المجنونة

الوحيدة في العالم التي تمسك سنابل لغة بقوة فراسة تمنحني جمالاً محتجباً عن عيون تقرأ ولا تستنتج وتموت ولا تحيا..

لا بد أنني عنيدة جداً لأقبل بمغامرة أثبت فيها قوة المرأة بين متحرك وثابت وبين ماض وحاضر، بين رغبتها وحبها وعين العقل التي تجعلها في زاوية قلب مهجور يتأرجح بين أطلال الماضي والحاضر ومستقبل غامض أخافه..

لكنني لم أجد أجمل من حب رجل واحد في حياتي وهذه نعمة كبرى أخاف فقدانها...

شعرت كأني أربكتُ عقله المليء بالمفاهيم الغربية، وهي مفاهيم أحترمها، فالأخذ من كل شيء جزء يسير هو معرفة متينة تحملني نحو واحات العلم والأدب لأتجمل وأستبدل الحجاب بشال ولكن على رأسي شالٌ من مادة مصنوعة من خيوط حريرية هي جزء من شرنقة ستطير حتماً... يا إلهي أصبتُ بالجنون مؤكد..

– هل تشتاق أمك؟...

صمت استظل الشفاه التي عضت على الأنامل حزناً.. أحسستُ بدمعة أحرقت قلبه، وكأنه يوم غادر إلى فرنسا لم يشعر باحتياجه لأمه، فالفتيات كنَّ يتبادلن أدوارهن في سريره، كأنهنَّ جاريات شهريار في زمن عولمةٍ مُعصرن..

تثاقلت خطواته.. أمسك كوب الماء الفارغ من أنفاسي

يستنشق رائحة نبيذٍ يشتاقه.. رائحة امرأة يعشقها يضيء شموعه العشر لها.. جعلتني أشعر بحضورها وهي غائبة عنه، فزادتني حنيناً لأراها، لعله تهوره خلق فيه نزعة هجر تفيأت في مفاتن وجوه تعددت والأنثى واحدة فقط. شهرزاد أحبها..

احتار ماذا يفعل؟.. وكيف يتخلص من إحساس بالهزيمة، لأني لست شهرزاده.. أمسكتُ بكوب الماء الجميل المصنوع من زجاج التقط من روحي ما جعلني أشعر ببريقه، وكأنه عاد إلى الحياة حين شعرتُ بأنوثتي الطاغية في ذاتي، وشربت آخر قطرة فيه كأنني ارتويتُ من حياة جعلتني أرى كل شيء حي بي.. أقفلت كتاباً بين يدي، وضعته على الطاولة أمام لوحة فيها صورة أمه..

تأملتها بعمق وكأنني رأيته جاثياً أمامها يطلب منها أن تسامحه وهو يبكي كل امرأة أحبها.. احتضنها.. وفقدها...

نظرتُ إليه... لم أجده كأنه يبحثُ عن نفسه بين امرأتين أمه وأنا...

أيقنت أن العالم جوهر من صنع خالق واحد، وإن تعددت اللغات؛ فالمشاعر الإنسانية تولد في أحضان أم عاشقة تبثُّ الحياة من أنفاسها عطراً لا تمحوه أحزان شهريار..

تساءلت ما الذي يعيق العرب والغرب من الاندماج في تناغم فكري يجعل العالم على ارتباط واحد!.. ربما الارتباط

يصيبنا بالعقم لأنه يجعلنا في خط مائل لا يستقيم بينما النقطة هي الحرية المفقودة التي نبحث عنها دائماً فنضعها لحرف عين في كلمة جعلتني أشعر بعروبتي وأفتخر بها...

ابتلعت آخر حرف لكنه تمرد في حلقي وأراد الخروج بهمسة تحجرت بين شفاهي لتترك رعشة غربة في قلب رجل غريب في وطنه... يبحث عن هوية جديدة...

سألني هل سأراك؟.. خيم الصمت الساكن قلبي والحياء يعلو مُحياي في جرأة اندفعت من شفتيّ بقوة؟..

– نعم متى تشاء، لكن على أكف الحياة المفتوحة في طبيعة لا تحتجب عنك وعني.. تحت قطرات مطر تغسل خطيئة كون جعلنا نتمرد عليه، أو في طبيعة تمد أصابعها لكل طفل تائه يبحث عنك وعني..

– قال بسرعة أدهشتني كأنه مذعور من كلماتي...

«بدك يقولوا محمد مع امرأة محجبة؟..».

بحثت عن نقطة أرسمها على حرف... فلم أجد وكأنني عدتُ من حيث أتيت والمغامرة لم تبدأ ولم تنتهِ..

بين هاتين المفردتين

لم أصدق أن الكائن الواقف أمامي محسوس إلى هذه الدرجة أو بالأحرى شفاف كصفحة ماء ربما أثيري الوجود. حقيقة جماله لا يمكن لأي قلم وصفه، فأنا نفسي ظننت أن مساً من الجنون قد أصابني، وأيقنت حقيقة أني أتوجس من هذا الذي جلس لتوه على كرسي من خشب بجانب نبتتي المفضلة التي ترنحت من أنفاسه الربيعية في برد خريف لفح خدود زهرة الياسمين العراقية التي اهتزت فجأة، وهي المغمورة بعتمة ليل ذي رائحة مميزة. إذ ما انفك أنفي يداعب رائحة تشبه القصعين مع خلاصة الورد والزنجبيل، أحسست بالبرد يتسرب إلى أنحائي، فالأنفلونزا التي أصابتني لأيام لم تنهِ معركتها معي بعد. تصاعد بخار من أنفاسه مما رسم علامات تعجب في نفسي، وكأنه الغيوم الشفافة التي ترسم الأصابع من أشكالها رسومات ترتفع حيث تتلاشى وتتجدد كأني طفلة تحت غيمة ما، ظننته يحادثني لكنه

ابتسم، وكأنه يرى حفيدته الصغيرة أمامه وينتظر منها مداعبتة بمشاكسة لا يتوقعها.

لم أكن متأكدة إن كنت أهذي من شدة الحرارة أو أنا واعية لكل ما يجري في حديقتي الصغيرة ذات الأرجوحة الصغيرة والمقاعد الخشبية الضيقة، والزهور المنتشية بوجود كائن لا أدري من أين أتى ! أو كيف استطاع اختراق أوهامي، ليجلس أمامي مبتسماً. غرّد الخليوي تغريدة محادثة واتس-أبية. إلا أن رائحة الزهورات أثارت شهيتي لأسكب في فنجاني ما يكفي، لتبدأ الأبخرة بالتصاعد كأنها تهرب من أنفاسي وأنفاسه. مال قليلاً إلى اليمين والصمت يقاوم الشفاه التي أصابتها دهشة حضور تثير ألف سؤال وسؤال.

خّيل إليّ أنه ملاك خرج من قوقعة كوابيس اختبأت في نفسي. دققت في ملامحه، ولكن الغريب أني لم أحاول الوقوف أو الاقتراب منه بل أمسكت الخليوي لأرى من صاحب التغريدة الواتس-أبية هذه، وإذ بنزار يسأل أين أنت؟

- أنا على أرجوحتي أحتسي الزهورات الساخنة.

- أها عطر نباتي معتق، وحرارة تلسع الشفاه، حرارة تحتاج إلى مفهومية ونضج فكري.

- أين أجد هذه المفهومية.

- آخ.. أي شو السيناريو الليلة.

– ما من سيناريو الليلة نزار، يبدو أني بدأت بالهذيان.

– عتمة، نسمة الخريف، موسيقى الريكي، مشروب زهورات ساخنة، بخار يتصاعد، وأنا وضيف بلا ظل في ضيافتي.

– ضيف؟

– نعم ضيف لا أعلم من هو ربما إبليس لأنه يبدو غير ملموس أو بالأحرى شفاف كالماء، ويمكن ملاك لأنه فاتن الجمال.

– أكيد ملاك لأني أنا حاضر بدمك.

– لا أمزح نزار.

– اشتم رائحة موت قوية وأنا وسط جمال لا يوصف.

– لا شأن لي بهذا، أنا خارج الواتس والتكنولوجيا.

– يمكن صديقة لي ستموت غداً.

– الحمدلله، حتى لا أكون أنا.

– يا ساتر، بومة ليل، ما هذه القشعريرة كلها سأختفي.

– يبدو أن ضيفي عزرائيل.

– أخبريه ما يجيني إلا بعد ثلاثين سنة.

إلّا أن ضيفي تبسم وفاحت منه رائحة اختلطت مع تربة وماء وزهور بنفسجية، ومزيج عطر لا أدري سر تركيبته. إلا أنه لا يمكن نسيانه أبداً فقال: أخبريه أن موعد القطاف سيتأخر.

تراخت أناملي وسقط الخليوي متنحنحاً قبل أن يلامس الأرض وينزوي تحت الأرجوحة كالكلب المذعور، ونظرت إليه متأملة بفراسة غرابة كائن ليلي يتوشح العتمة الساحرة التي أعشقها في شهر تشرين.

سألته: قطاف؟

قال: قطاف أو قبض المعنى في روح الكلمة.

قلت لم تقبض الأرواح يا عزرائيل؟

قال: أنا أقطفها ولا أقبضها.

قلت: لماذا تقطف الأرواح يا عزرائيل؟

قال: لأخرجها من تربة لم تعد صالحة لها.

قلت: هل الأرواح مزروعة في تربة مخصصة لها؟

قال: نعم في طين يلين ويقسو ولكنه يحب دائماً العودة إلى ذاته؟

قلت: العودة؟..

قال: نعم العودة إلى الأرض التي قُبِضَ منها؟

قلت: هل عدنا لغرابة القبض والقطف؟

نعم لأن الإنسان دائماً ما بين هاتين المفردتين قبض وقطف يموت ولا يحيا.

موزة مقطعة وحص ليمون

قشر الموزة تاركاً اللب المصفر قليلاً على صحن دائري شفاف من الزجاج المزين بزهور جميلة، ومن ثم قطعها ورش عليها القليل من برش الفستق الحلبي، زينها بحص ليمون برتقالي واحد، ورش بعض قطرات من ماء الورد، ومن ثم تحرك نحوها. بعد أن أحضر شوكة صغيرة، وهي تحاول فهم ما يجري في هذا الصباح المختلف.

قال: لعينيك قدرة خرافية على بسط سلطة الجمال.

– لم أفهم ما سر موزة مقطعة، وحص ليمون برتقالي واحد.

– الأصفر يا حبيبتي مساحة لون نزق، والبرتقالي بركان إغواء خامد، فلا تحاولي نزع الأسود الشفاف عن كتفيك، كما انتزعت قشر الموزة الأصفر، لأنني أخاف اشتهاء عنق الحمامة.

– هل هذا تعويض عن خطيئة زمنية قمت بها بحق امرأة فاتنة؟، أم دلال ابن آدم لابنة حواء تكفيراً عمّا حدث في الماضي؟.

– تقصدين خطيئة حلم! جعلنا نجلس هنا، لأننا نخاف أن نعيشها في خاطرنا، ونشتهيها ويمنعنا عنها دين وعرف وخوف.

– أنا لا أؤمن بالثالوث الذي ذكرته. إنما هو القلب وصدق مشاعره، فلن أكذب على جسدي إنما أشاكس الحلم في مخيلة بحثت عن الحب فوجدته وهماً.

أمسك بالشوكة وغرزها بقطعة موز انفردت كحلقة دائرية تعيده إليها دائماً. غمسها ببرش الفستق الحلبي المخضر ووضعها بين شفتيها برقة متناهية، وهو يمسك أصابعها الباردة في يده اليسرى ليبثها دفء عودة انتظرها سنين.

قال: سأختار لك ثوباً حميماً لهذه الليلة فهل تسمحين؟.

– نعم خزانتي تنتظر من عينيك رؤيتها، فملابسي لها ذكرياتها. أرجو أن لا تختار ثوباً سيئ الذكرى؟.

– سأبحث إذاً عن الدانتيل، والخيط الرفيع، لأرى رخام كتفيك في ليل أراقصك فيه.

– تأملت فروع الأغصان، وهي تهتز في حديقة تفتقد لأصوات العصافير، وحفيف الأشجار إلا أن شرودها لم يمنعها من تذوق قطعة الموز الممزوجة بطعم الفستق الحلبي وقطرات ماء الورد.

قالت: لم أفهم سر حص الليمون مع الموز!

– حص ليمون مشبع بماء الورد، يثير انفعالي لأتأمل حركة الشفاه، وهي لذيذة بعد طعم الموز السكري المذاق، رسمت هذا في مخيلتي منذ التقينا أول مرة من عشرين سنة هل تذكرين؟. وها أنا أراه الآن حبيبتي.

– كل الجمال هنا، هل أنت متصالح مع أمنيات جامحة تحتاج إلى حقيقة قوية في ضوئها، لتكون مبصرة في النهار وساكنة في ليل تفتش فيه عن ثوب حميم ضاع منك في غمرة الشباب.

– بل الثوب الحميم برفقتك دائماً، وأنا متصالح مع جسدك وعلى خلاف مع عقلك، وأول الغيث جنون مخيلة، ومن ثم ينهمر مطر الحقيقة علينا.

– المصالحة بين جميع الحواس جوهر كلي، لأن التناقض يمنح اللذه في التصالح مع الذات والآخر، لكن حبيبي لا يمكنك فصل عقلي عن جسد يتفاعل معه وينفيه. يتناقض ويتصالح معه في آن.

غرز الشوكة مجدداً في قطعة موز أخرى ووضعها بين شفتيها، فأدخلتها برقة داخل فمها لكنها لم تحرك شفتيها كالعادة بل اكتفت بامتصاصها حتى النهاية، وهو يراقبها مستغرباً ملامحها التي بدأت تتغير، وكأنها الحقيقة التي يخافها.

قالت: ليل إغوائي لا يحتمله بشر ولا أحب الانكسار، فالإبحار في لجج عاطفتي يفرض الهيمنة على الواقع. فهل تراقصني الآن؟

أمسكت بحص الليمون ووضعته بين شفتيه المكتنزتين، وقف منحنياً قليلاً، أمسك يدها وترك قبلة حقيقية أدخلتها في دوامة صراع نفسي للحظات تجمد فيها الوقت، ثم استدار ملوحاً بيده قائلاً:

سأكتفي بحص الليمون الآن.

هل ما زلت شاهداً على أحلامنا؟..

رفاق درب مُقمر كنا في الصغر، نسير وفي ثنايا مخيّلتنا أحلام طفولة تلتحم مع أضواء مدينة الفيحاء «طرابلس»!.. وفي أعماقنا حنين لعكار.. لبيت جدتي المترهل.. لسريرها المرتفع.. لحديقتها الصغيرة.. لبابها الخشبي.. لغرفتها المُخيفة التي تشبه بيت الغول...

كنا نلمح القمر الفضيّ، وكأن العتمة تمدّ عنقها في جوف السماء، لتعانق أمنيات نحياها، ونحن نمشي عبر طرقات حارتنا الضيقة التي كانت تشبه مغارة أثرية تسكنها مجموعة من الأطفال... كنا نتبادل الكتب القصصية، لنقرأ ونحن في الملاجئ، قبل أن تنهض الحياة فينا، فنكبر.. ونشعر بالخوف من المستقبل...

أحياناً أتذكّر يا محمد!.. ذاك الطريق المتعرّج الذي يشبه خريطة القراصنة، كنا نضحك لأنها تسمى «نزلة العُمري» ووجوه المارّة تلتهب كأنها الشمس وضحاها.. وذاك الدرج الطويل، وأقدامنا تتلوّى قسوة في صعود يمتد مع أنفاسنا المتقطعة..

هل تذكر يا صديقي؟.. البلاطة العملاقة المطلّة على الملولة حيث كنا نجلس ونقطف الزهور النابتة من حولها، فنستريح قبل أن نصل إلى البيت، وكأن الحياة تنبت بين الأشواك الميتة وأناتها كصوت دوري سجين حيث كانت الأحلام تأخذنا إلى حياة فاضلة نشتاق إلى الحرية، وننسى الحروب ورؤية الدماء...

كنا نحاول امتطاء الأحلام لنسكن مدينتنا.. أتذكر بركة الملاحة ذات المياه العذبة، ونشيد مياهها يشبه هديل الحمام.. أتذكّر حمّام العبد حيث ولدت حكايا التاريخ عن عبد قتلوه، فمات عند الباب حيث التحم التاريخ مع الحاضر، لتكمل بوابة جامع طينال الحكاية فنهرب!.. ونركض!.. ونقف عند الكنيسة الإنجيلية ونشرب الخرنوب والأشجار تهز أغصانها كأنها تصفّق لنا وتضحك..

صمتٌ.. تأملٌ.. واستراحة عند نهر أبي علي، حيث قلعة طرابلس الشامخة وقبر جدي فيها!.. كأنه برزخ يسكنه الأحياء.. لم نتجاوز حينها عمر الصبا!.. كنتَ تمسك بيدي لتقول لي: «يا ضحى سأبني بيتاً هنا في قبة النصر لأتزوج وحبيبتي وسط الغيوم التي تضحك».. حينها قصصتَ لي أخبار الكبار، وأنهم يتشاجرون عندما يتزوجون.. كأن الحلم قد تحول إلى رماد عندما أمسكتُ بيدك وبدأنا نركض والرصاص يئزُّ فوق رؤوسنا.. كانت قدماي

ترتجفان، وأنت تضحك من ذاك الجبل الذي كان يخيفنا ولنا فيه أصدقاء..

كنّا نظنّ!.. أن الغول يسكن هناك.. الغول الذي يقتل الأطفال الصغار لكن يا محمد.. كنا كأطفال بلا حلم جرّدونا من ألعابنا التي كنا نتركها في الملاجئ، ونهرب إلى ثكنة بهجت غانم، لنشعر أننا في أمان بين أفراد الجيش، فتقول لي سأصبح جندياً فيها لأقتل الغول ونعود إلى حارتنا.. كنا نحبّها لأنها كانت تجعلنا نلعب مع بعضنا في الأراجيح..

أتذكّر ذاك الدرج الطويل، وذاك المنحدر الذي يليه لنصل إلى جامع حربا، فنشرب الماء البارد هناك وأصوات الباعة في سوق الخضار تتعالى. كنت تضحك وتقول لي: «هذا درب التبانة» لكن تلك مجرة سابحة وهنا الحقيقة المرّة..

لم أكن يومها أشعر بالخوف وأنت قربي، وأحياناً يا رفيق كنت أخاف عليك وعلى حبيبتك التي كنت تنتظرها ولم أكن أمتلك أفكاراً عن أسلوب معيشتنا آنذاك.. رغم الكلاب التي كانت تنبح بشدة قبل أية معركة تبدأ لنواصل الركض عبر حارتنا التي كنا نحبّها...

ما زالت بعهدتنا الذكريات وإن طال غياب الطفولة عنّا، وربما كنت أشاكسك حين كنت أختبئ في تلك المغارة الصغيرة

على كتف حارة الأميركان وأراك من خلف الصخرة الصغيرة تبكي وتنادي «يا ضحى». لم تعنفني حينها.. بل كنت تضمني إلى صدرك لتقول لي: «ظننت أن الغول سيأكلك ولن أراك ثانية». لكنك وعدتني أنك ستجعل من حارتنا جنّة، وسنغيّر اسمها لتكون «حارة الشهداء» على الأرض وإن طال العذاب لكننا حينها شعرنا بصدق أحلامنا ونحن نرسم على الأعمدة صورة الغول الكبير الذي ينمو في خيالنا، وكأنه يتلوى كشيطان يأكل الأطفال...

حينها لم تخبرني عن الطيارة الورقية التي كنا نصنعها ونرسلها حيث يسكن الله.. ألم يقولوا لنا إن الله في السماء يسمعنا!.. كنا نرسل إليه طياراتنا ونحمّلها رسائلنا «إن الغول الشرير يؤذي بيوتنا ويأكل جدّاتنا متى يا الله ستُبعد عنّا البلاء والهمّ والغمّ وتبقي لنا جدّاتنا؟».

«جبل محسن» و«حارة البقّار»، بل هي حارة الشهداء...

إن الطفولة التي منحتنا إياها الحياة ما زالت منقوشة على حبّات التراب المنثورة في حارتي التي كنا نلعب فيها معاً ونصنع بيوتاً طينية من ترابها المعطّر بالمطر ونسعد بها.. كنت تقول لي: «هكذا سنبني بيوتنا فتتزوجين من حبيبك وأتزوج من حبيبتي». ألست حبيبتك يا رفيق؟..

كنت تخجل حين أسألك هذا السؤال.. ثم تصمت صمتاً

كان يبكيني حين تقول لي: «حبيبتي لا تربط شعرها كاللعبة، حبيبتي شعرها كالريح يطير كما الزهور وعيناها شمس تضيء كل صباح، سأحملها على يدي كما يحمل أبوك فنجان القهوة ذا الرائحة التي تداعب أنفي كل صباح»..

كنت أخجل من كلامك حينها، لكن كنت أشعر كأنني في صدرك مخبأة من الغول لو أتى، ومن ثم كنا نهرب من الملاجئ والخوف يملأنا.. أنت ممسك بيدي ولعبتي شعرها كالريح تركض معنا لنختبئ في السيارة التي كانت تزعجنا لأننا كنا نجلس ورؤوسنا كصيصان لا نرى من شدة الزحام شيئاً...

هكذا كبرنا.. لكن أتساءل: أين أنت يا رفيق؟.. أين رحلت؟.. هل تزوجت حبيبة شعرها كالريح؟.. أم أصبحت طبيباً تداوي المرضى كما كنا نحلم حين كانت تأتي الممرضات مع الطبيب إلى المدرسة ونشعر بوخز الإبر على أيدينا.. لم نكن نفهم حينها إلّا كلمة سل.. سل... ونسأل: ما هذا؟.. فكان ردّهن: غول كبير يجعل الأطفال لا يسيرون، فنخاف أكثر ونستسلم بين أيديهن... أم أصبحت أستاذاً يمسك القضيب بيديه ليضرب التلاميذ ويصرخ بالعالي: فعل ماضٍ يا غبي.. ونضحك في أنفسنا، ونتساءل: هل هو مدرّس فعلاً؟...

هل عرفت أنني أفتقدك حتى بمخيلتي التي تجعلني أتذكّر

أشياء كثيرة والقلم الذي يُلهب خيال طفولتي وأنا جدّة أجلس على كرسي الهزاز.. وأحياناً أروي لحفيدتي حكايات كما كنا نتخيّل الجدّات.. لم نعد نرى جدّات يا رفيق.. ربما ما سنرويه لأحفادنا سيظنون أنه تلفيق!.. ونحن في عصر لا يشبه أياً من العصور، لكن هل أصبحت خبازاً؟.. أتذكّر حين كنا نذهب كل صباح إلى فرن «البقّار» لنرى الخبز وهو يرتفع محمراً ونمسك الرغيف بأيدينا لنأكل ونحن ننتظر الأرغفة حتى تنتهي لنحملها إلى البيت.. تغيّر كل شيء لكن حارتنا ما زالت كما هي يا رفيق بيوتها.. جدرانها.. فقراؤها.. شهداؤها.. كثيراً ما رأيناهم يتخبطون بدمائهم في التراب، ما زلت أرى كل هذا حين أمشي مثلما كنا نمشي فيها لكنني أفتقدك أكثر فأكثر كل مرة..

ربما أصبحت بائع لعب!.. كما كنا نتمنى أن نشتري ألعابنا في العيد وسط زحام شديد بين الأطفال حيث كنت تقول لي: «سأجعل هنا مدينة ألعاب لا نبيع فيها ولا نشتري، بل نجعل ألعابها هدايا للأطفال لأن المال لا يكفي لأشتري لك دمية كبيرة كما تتمنين»..

ربما!.. أصبحت رجلاً وترتدي لباساً عسكرياً كأبيك!.. نعم أنت كذلك يا محمد... أتذكّر أول مرة لبستها وأتيت لتزورني، قلت لي: «هكذا حبيبتي ستراني!.. ستحبني جداً».. ثم أتيت

فبكيت على يدي قلت لي: «لن تحبني رأتني ولم تهتم».. نسيت أحلامنا يا محمد وسرقت منك تلك الحبيبة أحلامنا.. لم تصبح فراناً!.. ولم تصبح أستاذاً!.. قلت سأقتل الغول وأسكن هناك في مدينة الشمس لأبتعد عنها، وربما سأحبك أنتِ، أمسك بيدي وهو يلوك بسمة مخفية جعلتني أداعبه بلكمة خفيفة على ثغره فتألم وجعلني أشعر بالرعب خوفاً من ضربة قد تكون قاسية لكنه بسرعة دحرج ليرة معدنية فأسرعت لألتقطها.. لكن شيطان الحياة أسرع منا.... لم أشعر إلّا بضجيج وهرولة وأصوات تضج وفي عيني نور يغريني لألتقط النجوم، ودموع محمد تتساقط على خدّي، فأشعر بسخونتها.. هكذا صدمتني سيارة البلدية كما صدمتني الحياة، وشعرت بمحبته وندمه وخوفه من أن أموت وكبرنا معاً والتقطتنا الحياة ونبض قلبه حباً لكن الحبيبة تزوجت، فأحبّ وطنه وكفنه علم لبنان شهيداً في سوق الغرب، فكانت أحلامنا شاهدة على قساوة الحياة...

ما زلت أنتظرك حبيباً، ما زلت أنتظرك شيخاً كبيراً يروي الحكايات للأطفال، ما زلت أراك في مسكن الشمس، فهل ما زلت شاهداً على أحلامنا؟. ولا تزال حارة البقار تنتظر الأيادي البيضاء لتكون جنّة نحيا فيها بسلام...

فن الاتصال..

تَحسّسته برؤوس أناملها فرأسه المستدير يُساعدها على مَحو كُلّ خطأ يحدث فجأة، وهي التي عُرفت برصانتها وتعقلها، فابتسامتها المرسومة على ثغرها هي سر من أسرار نفس طفلة في ثوب امرأة أربعينية سمينة ممتلئة مشرقة كأم حنون..

لعل فيه روح من ألم يتكون في خلايا قادرة أن تطفو على وجه الماء وهو الوسيلة الأولى التي يكتشف الطفل فيها الاستقامة والمعرفة، اختراع سينتهي استعماله لنستبدله بتكنولوجيا لا تشبهه، خطوطه الدائرية تدهشني حين يكون بين أناملي وكأنه يوجد بيننا اتصال فكري مباشر لا إدراكي.. مثير للشفقة وهو يخط دوائره، أتغزل به ويتغزل بي، عيناك يمامتان بريتان تناديانى... لنمسكه من الطرفين سيدتي !.. تصببت عرقاً وقشعريرة، لفّت جسدها البارد رغم الشال الصوفي الذي تضعه على كتفيها.. ما هو فن الاتصال!؟..

خلقنا الإنسان في أحسن تقويم فالدعوة إلى الله قائمة على

الأخلاق الحميدة والاتصال بالآخرين، وهو عملية مستمرة مثمرة من المهم دائماً أن يكون الاتصال مثمراً مفيداً، فحين نمسك كلا الطرفين تكون الاستجابة نتيجة إيجابية تجعلنا نشعر أن حقيقة الاتصال عملية مستمرة بالحس الإدراكي الذي نملكه.

كما نمسك الآن بهذه الوسيلة من الطرفين وكلانا يشعر أن الطرف الأول هو الطرف الثاني وهذا هو عنصر الاتصال بيننا!؟...

شعرت بالقشعريرة تلفها وعيناها تتواريان كي لا تتجاوب كأنه يصدر إيحاءات تجعلها ترتبك فلا تستطيع أن تتماسك لكنها تجاوبت حين سألها عن المعنى الذي يصل إلى الآخر عبر فن الاتصال والذي ينتج من طريقة الكلام التي تتكلم بها؟...

نظرت إليه ورفعت نبرة صوتها كأنها أرادت أن تنتقم منه بالأسلوب ذاته الذي بدأ به وكل منهما نسي أنه في قاعة والندوة عن فن الاتصال والتطوير الذاتي..

قالت محدثة نفسها: «لا يمكن أن يصدر هذا الكلام من رجل يحمل لواء الثقافة والعلم».

اشتعل خداها الأحمران، وارتبكت ونظراته تتأملها وكأنه ينتظر ردها...

هناك إيحاءات تصدر من أشخاص لا يرغبون أن يفهمها الآخر، لهذا لا بد من تطويرها ديناميكياً وهي طريقة اتصال معقدة تدخل عن طريق العيون...

توجهت نحو الباب كأنها تتأهب للخروج من القاعة؛ فالقشعريرة كنشوة بدأت تتسرب إلى جسدها والدهشة تملأها بتساؤلات لماذا يحدث هذا معها؟؟ الآن !.

لا بد من معرفة وجهات النظر للاتصال الشخصي كي يكون ناجحاً وبناءً، وكانت تنظر بوضوح إلى ساعة في يدها وكأن الساعة في زمن الجليد وعقاربها تجمدت، أما هو فقد انتظر هذه الفرصة منذ رآها أول مرة في غرفة المدرسات الصغيرة حين دخل ليطلب منها أن تعطيه فكرة عن درس سيشرحه لكنها تجاهلته، كانت عصية مثل حبيبته الأولى التي خسرها....

كانت سمينة ممتلئة سمراء ذات شعر أسود، تحب القراءة في كتب الشعر والأدب ومجلات البيئة، وغالباً ما كانت تجلس أمامه صامتة دون كلام ليشعر بالغيرة من الكتاب الذي تمسكه بين يديها. أكمل قائلاً: كثيراً ما يساء فهم هذا العلم سأوضح لكم أخطاءهم فنحن لا نستطيع معرفة كل شيء عن كل شيء؟..

– قال: «ما هي المعلومات التي يستطيع العقل تخزينها من خلال الإيحاء بالعين!».

– قالت: «حين تتكون قراءات جديدة لأنواع أخرى من الاتصال..».

– قـال: «إذاً علينا تطوير مهارات الاتصال الشخصية الأساسية كي نتقن فن الاتصال من خلال إدارة الذات»!!

– قالت: «تطوير الذات أفضل من إدارتها فكل ما يحدث حولنا هو نوع من الاتصال وتحفيز لإشراقة في التعامل المبني على الجوهر لا على الذات».

– قـال: «لا بد من تجارب شخصية لتطوير المهارات الذاتية»!!

– قالت: «هذا يحتاج إلى تغذية عكسية كي يصبح المستقبل مرسلاً والمرسل إليه مستقبلاً ونظرت إلى عينيه بإيحاء رافض لأجواء درس لا يخلو من مرسل ومرسل إليه».

– قال: «لا بد من تطوير الذات لنمتلك فن الاتصال الصحيح مع الآخر والسعي لإتقان أي عمل نباشر به!!».

– قالت: «كثير من المعلومات تنتقل عن طريق لغة الجسم، فأي جسم خلاق في الحياة له لغة مبنية على حركات انفعالية يصدرها وهو الذي يستطيع إيصال الهدف بعدة طرق. فكيف تكون الإيماءات ووضع الجسم؟».

نظرت إليه نظرة مرسلة فيها إيحاءات رفض لما يصدر منه في درس لا يخلو من اتصال ذاتي لتطوير هدف يرسله إليها.

كالمصافحة مع وضع اليد الأخرى على الكف وهي إيماء

يدل على الإخلاص والحنان والمحبة، لنجري هذا التمرين معاً دكتورة نسرين...

آسفة، فلغة الوقت تشير أن زوجي ينتظرني، رمت القلم وخرجت بخطى واثقة من القاعة وعيناه لم تعودا قادرتين على متابعة النظر إليها وهي تسير ببطء نحو باب القاعة...

ثرثرة تنابل

أمسكتُ بالجريدة مؤدياً فروض الطاعة للصحافة التي تركتني جالساً على كرسي خشبي في قهوة التل العليا. إلّا أن ذلك لم يتركني مهجوراً من الزمن ومنفياً عن المكان، فأنا في كل مرة أتحداه يظهر ضعفاً في الدفاع! إنه يدرك أنها لعبة الحياة التي لا تنتهي إلّا بانتهاء الحركة التي ترتبط بجسد، إنه لا يختصر أي وقت، ولا يخفي أي عوامل للزمن. ولا يمسح نظارتيه اللتين تعطيانه قوة النظر إلى جانب الحنكة والصمت، فهو قارىء لا يتهرب من حقيقة الحدث، بل يعكس الماضي والحاضر ليستنتج المستقبل. لكن هذه المرة جعلني أفتقده في كل الأزمنة. وحدها البيادق تحافظ على شكلها وقوامها، وتقوم بمخاطبة العقل المتأرجح بين الرتب والأرتال. ولا تموت إلّا مجازياً بين أيدينا، لنعيد اللعبة في كل مرة.

تركت صفحة الوفيات خاتماً أحزاني بعد مضي أسبوع على وفاة رفيقي أو بالأصح اللاعب مسعود، إلّا أن كرسي مسعود

له ميزة تحقق لي التكييف، لهذا حاولت الحفاظ على مكانها، وخلوها من أي متطفل يجلس عليها موازياً لي، لمعت في ذهني يد مسعود تمتد وهي ترتجف، أمسك بالحصان قائلاً: تحرك أيها الوزير نحو اليسار أو في أي اتجاه تريد، فالملك لا يستطيع الحركة الآن.

سيزداد الغموض عندما تهب الرياح في وجه القلعة.

اختصرتُ الحركة على النظر، وأنا غارق في التفكير تاركاً حركة السبابة والإبهام تحاول التقاط الحصان، لأستكشف الحركة القادمة على الصف العرضي أمامي، تركت الوزير متربعاً في مربعه يقف كالمتفرج بانتظار النصر، وكأني أمزج الصراع في كل الاتجاهات قبل أن أبدأ الحركة المذهلة التي أعتمدها في كل مرة أربح فيها.

تحرك في أي اتجاه تريد، قبل أن أستولي على الملك وأمحو عدالتك الاستبدادية.

- أخرج الدخان من أنفه، وتمتم ببطء خطوتين إلى الأمام ويتم القتل، إنها النقاط الأربع المتوازنة التي تجنبني الموت.

- هل الموقف حاسم؟..

- سأعيق الحركة، وأتجنب تحريك البيادق، اطمئن لن تعيش طويلاً، في وجه أكذوبة السلام.

أحسست بدمعتي المتمردة ثابتة في محجرها، لكنها تترقرق

وتستعد للسقوط في أي لحظة، سمعت صوت كلماته الروتينية التي يطلقها كالببغاء دائماً..

– حرّك البيادق في المربعات كما تشاء، ولا تقترب من مربع الملك، وإلّا سأبدأ حركاتي التحالفية.

– سأقفز.. ما من خيار استراتيجي لك في هذه المرحلة، إنها الحرب النفسية الباردة يا صديقي.

تراءى لي الكرسي يهتز، فأحسست أن العيون تنظر إليّ بذهول، تابعت التفكير كي أستولي على الأحجار ناسياً أن اللعب مع الذات يفقد المرء قوة المحاورة.

– إنها مقاييس ذهنية تكتيكية، مؤكد تريد تحريك القلعة، المجال مفتوح، سأصل إلى الرتبة الخامسة فانتبه.

شعرتُ بالدمعة ساخنة على خدي، فمسحتها قبل أن تكمل طريقها، من مثلك يا صديقي يفهم حركتي، ويحاورني سأقوم بترقيتك إلى وزير. ارتفع صوتي تدريجاً، قبل أن أصرخ هذه سياسة انفتاح متزنة؟ ونسيت وجودي في مقهى التنابل، كما نسيت الفراغ الذي أعاق حركتي وسبب لي الحزن لفقدان صداقة دامت سنين...

– هل من لاعب جديد يحصن الملك.

– إنها الحرب القادمة، لا تستمر في الدوران، ولا تعصف بذهن الملك، تحرك أيها الوزير في المربعات بسلام.

– سأتركك مرتبكاً على الحدود، ربما ترفع علم السلام.

– تقصد الاستسلام.

– تجرد من الرموز، واخرج من تحت المظلة واكتشف واقع الإدراك الزماني والمكاني، إنه صراع البيادق، فلا تبتعد الآن، واستخدم القوة.

– هذا انتشار استراتيجي مدعوم، أنتظر مربعاً واحداً فقط.

– كش ملك.

– تجمد حسين حاملاً بيده صينية القهوة وهو يراقبني أتحدث مع نفسي. للحظات بقي فاتحاً فمه، هذا عجب العجاب، مع من تتحدث يا جابر؟.

– أتحدث مع الوزير يا صديقي، اللاعبان تخليا عن حماية الملك وهو الوحيد القادر على تحديد خطوط الدفاع.

– يا إلهي، قهوة العجائز هذه ستجعلني في دار المجانين يوماً..

– وضع فنجان القهوة على الطاولة، واستدار وهو يتمم سأجن يوماً، يا للعبد الفقير

– لا تخف من ثرثرة تنابل، إنه الزهايمر يا صديقي.

بربري في لبنان

هاتفني قائلاً: «جدي جلجامش وأنا في بيروت».

قلت: «جدتي أليسار وأنا في طرابلس...».

إن لم تكن أليسار تعرف معنى الحُب الخالد، وهي مَن رمت بنفسها في النار لتكون وفية لِمن عشقت وأحبت ولِتكون مملكتها عنوان تضحيتها وهي تضحية ملكة قد جعلت مِن الحُب مملكة كنعانية أبعد من حُدود الموت وأبعد من حدود الحُب الحَي الخالد....

مملكة حُب صادق لم تكن لِبربري قط!!...

وهي قَد رمت بنفسها في النار لِتطهر شعبها من أطماع مَلك غرَّه جمالها... فَما جلجامش إلّا أسطورة خالدة وما أليسار إلّا مَلكة حية خالدة بتاريخها، فكيف له أن لا يقدس ملكة قَد أنارت بفطنتها الشرق... فَمن يَتأمل وطَناً حَمل مَعاني أسطورية وتاريخية جَليلة شاهدة على أفكارنا العَربية وسِحراً شرقياً فاتناً يمتد مِن

كليوباترا إلى شَهرزاد إلى شجرة الدر وصولاً إلى أرز لبنان الشاهد عَلى جمال عَربي مُزدان بالخضرة...

فَكيف لجلجامش الأله المُحب أن لا يأتي إلى مَعبدها القائم في مدينة تَفترش البحر وتَغفو على الرمال وهِي تُعانق بياض الثلج في صنين والباروك وتَنبسط سُهولها المَيثاء مَع إشراقة الشمس لِتعكس بألوانها الذهبية جَمال صور حَيث كانت أليسار....

فَمن طرابلس وهِي القلب الذي يَضم إليه محراباً هو مِحراب طينال الذي يضطرم فيه الإيمان، فَتأنس النفوس المتعبة إليه، وشاطىء يُمسك بقلعة أشبه بجبل مُرتفع يعانق السحاب، وهو الآتي مِن مدينة ساحرة سحرها يفوق سِحر هاروت وماروت ومَدينة آشور ونَبوخذ نصر وحتشبسوت وحُب حمل لمهيبا أجمل الأحلام...

مَدينة يَتلوى فيها النخيل مَع هبات النسيم وعُطور بخور مريم وهذه الرؤى كلها مرَّت عَلى خيالي وهو يُكلمني عَن جمال لبنان وبحرف البحر الأزرق وهُو رمز العنفوان الفينيقي....

رؤى كالغيمات المنتشرة في لحظات شعرت بها بقسوة ظلم القدر حين تركني بعيدة عن مليكي السومري كُل البعد الذي جعلني أحول حَديثي معه إلى كَلمات بَريئة تدغدغ حبات الرمال اللاهبة التي كنت أشعر كأني أدوس عَليها بحرقة وغصة...

قَبس من جمال إلهي !.. وهدير صوته أشبه بصوت معصرة الزيتون في الكورة بَلدة الخير، فساد صمتي وهو يَصف سيدة لبنان في حَريصا التي أشبه بناسكة مُتعبدة تحتضن البحر والجبل حتى لتظن أنك على حافة ينبوع يجعلك ترتشف مِنه قطرات مِن حُب ممزوجة بدمعة مريمية...

فالمعاني التي كان يُسبغها بعضاً مِن مُحسناته !. جَعلتني أسرِّح الطرف بحدائق بابل المُعلقة والبرج المائل ومَدينة نينوى التي ولد مِنها ذاك البربري المُتكلم، فضحكته الثملى ما كانت لِتهدأ إلّا حين رسمت له جمال بساتين الكَرمة في زغرتا التي تتكىء عَلى طرابلس كأنها ملكة تمسك بنهر الحَياة المُنساب كنهر أبي علي....

فإصراره ليراني في بيروت كإصرار المياه الثائرة المُهتاجة في أعالي جبال الأربعين الشمالية، وما كان ليهدأ إلّا حين قُلت له وما نحن في الحَياة الدُّنيا إلّا كَواكب سابحة في فلك واحد...

لكن لا أدري لما اختلجت في خَيالي صورة شهريار ذاك الطفل العنيد الذي روى سيفه حكايات وحكايات تَحمل دهشة كدهشتي بذاك البربري غير القادر على فهم حدود مملكتي وصوته المتلعثم الغاضب كان يحمل الرجاء في اللقاء..

حتى اختلج في نفسي تساؤل !.. أيَظن أني كحواء حين

هبطت من الجنة .. لتبحث عن آدم... فما نحن إلّا قلماً يَكاد يئن من خيال يلم بمعالم بلدين لوطن واحد..

فعبير زهر الليمون وزغردة البلابل وذاك الليل المُمتد من حزنه لرؤيتي في بيروت ما كان لينتشر حين أخبرته برفضي لتلبية دعوته، فسكن سكوناً أفزعني ظننت للحظات أني سمعت صوت شخرة كشخرة الموت وصمت!.. ثم عاد ليقول ستكونين من الخاسرين، تساءلت وكيف أكون كذلك وهو من لم ير جمال طرابلس..

لكنه حَمل القلم لينثر لي حُروفاً بقصة تَحمل في طياتها زيارته للبنان وقبلة كان يتمناها كقبلة بيروت للبحر المتوسط...

وأنا تمنيت أن أرى فيه بعضاً مِن معالم بلد قَد امتلأت بالمشاعر الراقية الدفينة في حضاراتها ورجلاً يحمل في جعبته قصصاً مختلفة مُحملة بعطر العراق وأمجاده..

قلت: «أمي حواء وأنا من أحفاد أليسار ولن آتي لزيارتك في بيروت فهدىء من روعك واترك للأيام أن ترسم لقاء مملوءاً بشموخ قلمين.

فنكون عِراقاً ولبنان وقلماً واحداً في سبيل هدف أوحد....

لكن لا أدري كيف سنكون والشموخ زادنا فلا أنا أليسار

ولا أنت جلجامش قال: «بل عمي حمورابي سآتي لأنقش على جدران متحف جبران بعضاً مِن كلماتي إليك...».

قلت: «أنابوليس لها من زرقة البحر هدوء ما يجعلك تعود لزيارتها دائماً والورود

تتكىء على معابر الزمان هلا بك في لبنان...».

الدخان الأبيض

عند الغروب !.. كان قرص الشمس المتوهج بلونه البرتقالي قد بدأ بالهبوط ليلامس خد البحر، فتمتزج الألوان وتتألق السماء، ليهتز البحر وتنتفض الأمواج معه عبر ضوء المغيب.

مزيج من ضوء وعتمة بدأ ينتشر وكأن رزانة الكون تتجلى عندما يبدأ الليل بالصلاة.

داعبت العتمة وريقات الشجر المنتشرة على الأرض ووقع الخطوات كأنها عزف آلة موسيقية فريدة، والعصافير الميتة المعلقة بحبال صغيرة تتدلى على جيب بنطاله الصغير وعلى كتفه فوهة صغيرة ما زالت رائحة البارود تعبق منها..

تأخرنا أمي، ألا تستطيعين المشي بسرعة، أريد الوصول إلى البيت، فأنا متعب وأريد تنظيف العصافير من الريش كي تأكليها غداً..

كنت أمسك بزهور برية قطفتها، فألوانها البيضاء والبنفسجية

والأحمر الأرجواني كأنها تصرخ بين يدي لتغمرني بعطرها، وكأنها تودع البساتين التي كانت فيها.

خفضت رأسي خجلاً من الحياة التي نظلمها ونحن نؤذي من فيها فرحين بما نقدم لأنفسنا بما نظن أنه جمال وكأن الموت المعلق على جيب أسامة يشبه الموت الذي أمسك به بين يدي والعتمة بدأت تعانق السماء وتنشدها لحن الحياة..

جلست على صخرة صغيرة ألهث من تعب وأسامة يمشي أمامي مزهواً بعصافيره الميتة على جيبه كما أنا مزهوة بزهوري التي تلفظ أنفاسها الأخيرة بين يدي، تسربت رائحة الأرض إلى أنفي وكأنها أجنحة فراش غير مرئي لكنه يلامس وجنتي وشفتيّ اللتين ترتجفان من أنفاسي المتعبة..

هل أستطيع أن أمسك بالبارودة يا أسامة!؟.

نعم أمي هي لكِ.

ببطء رميت الزهور من يدي على الأرض فأحسست أنها تبسمت لي وضحكت وهي تلامس الأرض كأنها جثث مرمية تعانق التراب لتحيا فيه من جديد لتنعش قلبي المتعب الذي يحتاج إلى عطر قرنفل يشفيه، راهنت على قوتي لضغط زناد البارودة، ضغطت بقوة كأن أصابعي تتمرد عليّ، ارتد صدى الصوت كأنني

في واد عميق غير عابئة بما جرى، شممت رائحة البارود مجدداً وكأنه قتل حبات الندى هذه المرة..

ماذا تفعلين أمي!؟..

قتلت عصفورة..

أين هي أمي..

عصفورة بيضاء مدت لي جناحيها، انظر هي ممددة على الأرض.

رفع صوته صارخاً، أمي لا يوجد شيء لماذا أطلقت البارود من البندقية.

لم أطلق البارود أسامة...

أطلقت دخاناً أبيض على العتمة كي ترى عصفورتي طريقها لكنها ماتت....

دخان أبيض؟....

وسط هذه القذارة

قال متردداً وهو يتأمل لف الورقة الخضراء التي تتدحرج بين أصابعه ببراعة «أريد لف ورق العنب أيضاً».

أنا أيضاً أتعلمه، ما زلت لا أستطيع ترتيب قياساته لتكون كل ورقة بقياس أختها، ولكن سنتعلم معاً ما رأيك يا محمود؟.

كان الأرز يتساقط هنا وهناك وهو جالس يلف ورق العنب عند بركة سوق الذهب في طرابلس ليبيعه جاهزاً كي يستطيع جمع ما يكفي عائلته قوت يومها دون مد اليد لأحد. هكذا بدأ محمود يتعلم لف ورق العنب مع أبيه وهو يرافقه كل يوم إلى السوق.

أريد كيلو من ورق العنب الملفوف بالأرز فقط. قال بصوت خفيض وهو يلتفت يميناً وشمالاً، كأنه لا يريد أن يسمعه سواه. بل كأنه يخطط لسرقة ما أو لشراء هدية بأبخس الثمن.

لم يتمالك نفسه من الفرح ولم يجد أي كيس ليضع له ورق العنب الجاهز للطبخ في كيس مرتب لأن الأكياس التي حوله لا

تليق برجل مثله أراد شراء ورق العنب الجاهز للطبخ، فوجد كيساً ورقياً كان قد أحضر فيه الأرز الخاص للف ورق العنب. الآن أدرك أبو محمود لماذا كان ورق العنب لسنوات قديمة يرمز لديه إلى عالم مستريح ومرفه عكس الذي يعيشه الآن.

فرح أبو محمود بطلبية مطعمه المفتوح لورق العنب الجاهز للأكل دون الاهتمام برائحة البركة التي تفوح منها رائحة كريهة تختلط مع رائحة ورق العنب وميزته في هذه الأيام خصوصاً حموضته التي ميزت رخام البركة وتركت ألواناً تميل إلى السواد، وبين الورقة والورقة لم يستطع مقاومة الأكل برمي بعض الأصابع الورقية في فمه بينما محمود ترك لأصابعه الصغيرة متعة اللف وهو يرتشف القهوة بين الحين والآخر، ليتمكن من منافسة والده بلف كمية أكبر تحت حرارة الشمس التي تزيد من صعوبة البقاء بين رائحتين.

الحمدلله، الله رزقنا اليوم بيع طبخة ورق عنب، سأبدأ بلف طبخة لنا ما رأيك يا محمود؟ يبدو أنه ما من خلل في متعة الأكل عند الناس، فالقيمة اللذيذة للطعم اللذيذ ما زالت بخير.

ضحك محمود ورمى بقايا ورق العنب الممزق في البركة ليستعد لعملية لف جديدة كبيرة وواسعة وعلى مستوى الجيران ليأكلوا ورق العنب من صنع يديه.

إلّا أن القصة لم تكتمل مع لذة أبو محمود وورقه العنب بعد

أن رقعت المرأة أذيال ثوبها، وسرعان ما أطبقت شفتيها عابسة فقد اخترقت روائح البركة أنفها. فدهشتها ببراعته في لف ورق العنب لم تمنعها من قول: «كيف تطيق الجلوس هنا وسط هذه القذارة؟».

حوار الجسد تحت ثوب امرأة

تمتلئ العتمة بالندى في لوحات موسيقية تصفّق مع أغصان الأشجار العارية، لتضيء أثواب الكون المسكونة بعتمة يشعّ صبحها قبل غروبها، وتصبح الميول الإنسانية المحرّك العميق لرغبات جسد يقبع تحت أحاسيس ذهنية تختبئ وتظهر في مشاهد تصويرية خيالية تكون وحدها هي مفتاح الخروج من الشك والحيرة؛ فغروب الحياة كالضوء المسافر بين جنبات الحلم الصامت.. والحرف يثير تساؤلاً خاصاً بي حين وصلتني رسالته وكأنها ضوء يتساقط قطرة قطرة مع كل حرف أقرأه. قال: انتظرت العتمة لأردّ التحية، فللنهار عيون تفضح تقصيري بمقاربة كلماتك التي كألف وسام تصرعني بالحياة وتحييني بالاختباء.. انتظرت جرعة شجاعة استمدها بقراءة قبلتك، فوددت أن أطبع على صفحة حبرك ومسام يدك قبلة الانتماء إلى شلالك.. من ينتصر بالسقوط في انتصارك؟.. مساؤك في المدى الأبيض احترام الغروب لك...

هل نجلس في عتمة شديدة الظلمة نستمد النور من أحرفنا؟.. هل يمضي الغروب مع صبح يتحاور ووشوشات عصافير ترفرف مع أرواح مغرّدة تغادرنا؟.. كيف يموت حب ويولد القلب؟.. كيف نرث ثرثرة المشاعر الجوفية فينا، كبئر تخفي عذب مذاق الماء فيها؟.. أو كيف ندفنها لتكفنها أوراقنا وتظهر أمام العيون القارئة كزهرة غاردينيا؟...

تناولتُ المزيد من النسكافيه والظلمة تتلاشى أمام أصابعي، وكأني أكشف عن مدينة جديدة أسكنها كي أفكر بهدوء، لعل الأصباح في ضُحاها تتعرّى وتمنح الخلق جمالاً وتملأهم طيوباً أخلاقية تنتظرها خوافق لغة كالريح القوية..

ما الخطيئة؟.. ما الحبّ؟.. ما النزوة؟.. لا توجد خطيئة سوى كسر نواميس الكون والأخوة ورود في أشواكها...

غمرني الحزن والدمع جفّ في مكاحل ليل أشرق بين زهوري التي تهتز، وكأنها تبحث عن عبير ربيعي تفتقده في برد شتاء قارس... لامستُ زهرتي داعبتها بيدي، فانتشر عطرها في برد الليل كأنه ثلج داعب أنفي..

سألت روحي لماذا أنت حزينة؟ ..

هل تحزن النباتات كما نحزن؟.. أم أننا نعكس مشاعرنا على كل من حولنا؟.. أمسكتُ دمعتي بين السبابة والإبهام .. مزجتها

أكثر، شعرت بشفافيتها، وكأنها دمعة ليل خبأ ضوء نهار جعلني أسكن أكثر بين أزهاري التي أعشقها.. أحسست بسخونة أنفاسي وشددت سمعي كي أستطيع الإصغاء لصوت ليل يجيب عن أسئلتي العالقة في نفسي، وكأنني لا أستطيع إثارة كوامنها خوفاً من ان تنفجر.. هل سأستطيع البوح على ورقتي، فتثمر أجوبة ترضى عنها نفسي؟..

رفعت ثوبي عن ساقيّ، فشعرت بلغة جسد اكتواه حوار يكتمه، بدأ يثرثر والليل كأنه حبيب لم أره لكن أشعر به حد الجنون، كما أشعر بالعتمة تلف شرفتي وأرجوحتي لأغرق فيه أكثر..

هذه المرّة سأسمع حوار جسد بارد كقطعة جليد مرمية على جبل الحياة. والروح في حيرة كأنها تريد أن تطير إليه.. أمسكتُ المقص وقصصتُ ثوبي إلى قطع صغيرة نثرتها في الهواء، لأشعر بالبرد يغتالني كي يثرثر جسدي أكثر، ربما ليخلق حواراً متناغماً، فأشعر بروحي وهي تسكن هذا الجسد؟.. تسكن المدى الأبيض؟.. وكأنني حبّة لؤلؤ في كف الليل؟.. وهل أحتاجه؟.. هل أبحث عنه؟.. هل أرى فيه كل من أفتقدهم في حياتي؟.. أبي.. عمّتي.. أبا شلبي.. عمّي أحمد.. ذاك البائس من علّمني فن الحياة ثم رحل مع الموت؟.. صديقتي منتهى.. صديقتي

كوثر؟.. أم إنه استحضار ذهني لطيف مجهول؟.. ربما أنا امرأة لن تكبر روحها؟.. تأملت جسدي وأنصتُّ إليه؟.. مسكون بالحياء من نظرات عيوني؟.. ضحكتُ بجنون .. وسألته هل تخجل من أنثى تسكنك؟.. نظرت إلى زهرتي وهي عارية دائماً لماذا لا تشعرين بالحياء.. كما أشعر الآن من نفسي؟.. أشعر بعيون الليل تحدق بي.. هل نحن نختلف في التكوين أم في الإحساس؟.. أسدلت أوراقها وكأنها تفهم ما أقول.. فأسدلتُ أهدابي وغفوت، ولم أشعر بنور الصباح يتغلغل في جسدي إلاّ حين أحسستُ بحرارة الشمس تدغدغني، فشعرت بالخجل من ضوء النهار... أسرعت إلى غرفتي لأكمل نومي قبل غروب ستلفّه العتمة من جديد.

المحتويات

تقديم..... حياة حدارة ١٣
أبو شلبي.. ..... ٣٣
زهر اللوز وموت رغم الربيع!! ٣٥
عروس على كتف أبي علي... ..... ٣٨
غاوية... ..... ٤١
«ستعرف ما بيننا»... ..... ٤٤
شقية أنتِ.... ..... ٥٠
هي في قبضة الريح... ..... ٥٤
أحجية الوداع..... ٥٧
شقائق النعمان يا أبي ٦١
وتسألين عن يوم مولدي ؟ ! ٦٣
صمت الفراشات وبريق قلم اهتز... ..... ٦٧
والماء حين يغضب.... ..... ٧٣
ذكرى خضراء... ..... ٧٧
شفاه ملطخة بالشّعر!.. ..... ٨١
أمين... ..... ٨٥
عصاه.... ..... ٨٩
هل تعرفين قوة الاحتواء؟.. ..... ٩٢

العالم قبلة... ..... ٩٦
ضجيج... رئيس... قهوة... ..... ١٠٠
ثنائيات متكررة... ..... ١٠٥
طواف في سدة الوطن... ..... ١٠٩
وسط فراغ ! ١١٤
أيقونة في هذا المربع.. رجل في الواقع ١١٧
مذبحة غباء دموية... ..... ١٢١
«كمستري Chemistry» ! ١٢٥
مائدة الحياة.. ..... ١٣٠
نسوان آخر زمن... ..... ١٣٥
موجة!.. ..... ١٣٨
قبلة من هجير... ..... ١٤١
«فش برغر»... وشريطة صفراء.. ..... ١٤٥
بين العقل والجنون قطرة ندى ! ١٥١
على المكشوف... ..... ١٥٦
عنّاب... ..... ١٦٠
هل تعرفون ما هذه الكلمات؟.. ..... ١٦٣
زكام بائع الورد... ..... ١٧٢
خدش وعتمة..... ١٧٥
أنثاه.... ..... ١٧٩
الشيخة... ..... ١٨٣
وهْم واستحضار... ..... ١٨٧

أخطأت برقم ما سيدي!... ..... ١٩٠
توكي.... ..... ١٩٤
وسواس... ..... ١٩٩
سياسة إقليمية؟..... ٢٠٣
وما هي تلك القدرة الكامنة في الإنسان وكينونته؟ ٢٠٩
يا جميل الصورة.. ..... ٢١٣
هل عندك شك؟!.. ..... ٢١٧
استدارة كلام.. ..... ٢٢٠
عربة خيل ٢٢٣
الكادح يرفع إيدو... ..... ٢٢٦
شاي بنكهة عتب ٢٢٩
نقطة بلا حرف... ..... ٢٣٦
بين هاتين المفردتين..... ٢٤٥
موزة مقطعة وحص ليمون..... ٢٤٩
هل ما زلت شاهداً على أحلامنا؟.. ..... ٢٥٣
فن الاتصال.. ..... ٢٦٠
ثرثرة تنابل ٢٦٥
بربري في لبنان ٢٦٩
الدخان الأبيض ٢٧٤
وسط هذه القذارة ٢٧٧
حوار الجسد تحت ثوب امرأة ٢٨٠